القسم الثالث

التحول

أنتجت العولمة الشاملة في النصف الثاني من القرن الماضي تواصلاً ثقافياً متبادلاً أكثر كثافة مما كان عليه في أي حقبة زمنية أخرى من التاريخ. في فترات مبكرة – كما اليوم – كان التغيّر الثقافي عبارةً عن ناتج ثانوي عرضي للاتصال بين أشخاص يتميَّزون بأساليب مختلفة للعيش، والقسم الأكبر منه غير مقصود. ولكنّ التغير الثقافي المقصود الذي يُعرف أيضاً بالتحوّل دوراً في غاية الأهمية أيضاً، ويشتمل هذا التحوّل على تغيير الديانة ولكنه لا يقتصر عليها، كما يمكنُ أن يحصُلَ بمبادرةٍ من مقترضي الثقافة كما من ناقليها. وهو يُعتبر عمليةً ثُنائية الجوانب في كل الأحوال. شرع المبشِّرون، بما فيهم الدُعاة غير الدينيين، في إقناع الآخرين بتغيير نمط عيشهم ولكنهم حققوا النجاح عادةً في جزءٍ من عملهم، ولم يظهر نجاحهم إلا عندما رغب جمهورهم في الاستماع لما يقولون.

يُعدُّ التغير الثقافي الناتج عن مبادرةٍ من المستعيرين أكثر شيوعاً من غيره. فخلال القرون الأخيرة، تأتَّى القسم الأكبر من المبادرة من أصحاب التحديث غير الغربيين والذين عايشوا قبلهم التهديد الذي تسلطه عليهم القوة الغربية، والجاذبية القوية المنبعثة من المهارات التكنولوجية الغربية، ولكنهم لم يعيروا اهتماماً شديداً لمحاكاة الثقافة الغربية مثلما كانوا يتوقون للمشاركة في مكاسب الإنتاجية العالية والاستهلاك المرتفع اللذين شكَّلا أكثر مظاهر الغرب بروزاً خلال العصر الصناعي المبكر. لوحظ، بشكل شائع، في ميدان التغير الثقافي على مر القرون، بأنّ أوروبا الغربية كانت، على غرار اليابان، الأكثر شغفاً، بمحاكاة التقنيات الآتية من الخارج. ومن وجهة نظر تقنية صرف، اقترض القسم الأعظم مما جمعه الأوروبيون بنجاح

باهر لإقامة العصر الصناعي من مجتمعات مغايرة. وبحلول القرن التاسع عشر، بدا تفوق الغرب التقني ظاهراً لعيان الجميع مع أنه لم يحز على إعجاب الجميع. لقد كان هذا التفوق التقني مصدراً من مصادر قدرة أوروبا على الغزو وإنشاء إمبراطوريتها في الخارج. وقد طرح موضوع الجهد المبذول للتملّص من تهديد أوروبا بالسيطرة تكراراً ومراراً في مطالبة غير الغربيين بالتحديث، ولا سيما في مجال التكنولوجيا العسكرية.

ومرةً أخرى، لا تفيدُ كلمة التحديث، حسب استخدامها في هذه الدراسات، معنى تقليد الغرب، لا بل قد تدفعه في بعض الحالات، الرغبة بتفادي الغرب، ولا سيما القوة العسكرية الغربية. واستناداً إلى هذا التعريف، ليس التحديث كياناً متجانساً، ويشتمل الاندفاع نحو التحديث على خيارات مهمة بين عدد من الطرق الممكنة المؤدية إلى الإنتاجية العالية والاستهلاك الفردي المرتفع، يبدي كل من الغرب، واليابان، والدول التي دخلت مجال التصنيع حديثاً على الجانب الغربي من الباسيفيكي، اختلافاً ثقافياً مهماً، علماً بأنها كلها حديثة بالمعنى الذي استخدمه لهذه الكلمة.

ولكنَّ القرارات التي يتَّخذها الناس لا تميِّز، في كل الأحوال، بين ما هو ضروري لتحقيق هدف التحديث وبين عكسه. بدت بعض المظاهر التي ارتبطت أولاً بالغرب أساسية، من قبيل التكنولوجيا الصناعية والعلوم، والمعدّلات المرتفعة من التعليم والتعليم الجماعي، ودرجة مرتفعة من الحركيّة الاجتماعية، وبعضها الآخر ليس أساسياً ولكنه اقترض، في كل الأحوال، من قبيل ما تبنته اليابان من المظاهر الغربية التجارية الخاصة بعيد الميلاد، تاركةً الأساس الديني لهذه المناسبة جانباً. وخلال العقود القريبة العهد، انتشرت، في كل أنحاء العالم، عناصر أخرى من الثقافة الغربية، من قبيل الموسيقى الشعبية الأمريكية والجينز الأزرق، لم تكن أساساً في حركة التحديث، إلا أنها وصلت حتى إلى أماكن كانت فيها عجلة التحديث بطيئةً للغاية في نواحٍ أخرى.

أدّى الاقتراض المتبادل، في حالات نادرة، إلى نسخة كربونية للأصل. إذ عندما يضع أفراد مجتمع ما أيديهم على مزية من مزايا مجتمع غريب، يُسحب الإبداع من الإطار الثقافي الأصلي ويندمج في إطار جديد. وعند حدوث وضعٍ كندا، فإنه يكون إما محوراً بحيث يتناسب مع سياقه الجديد، أو يحوّر بنفسه بيئته الثقافية الجديدة. وبشكلٍ عام، يحصل التحول بشكليه إلى حد ما.

تُعنى الفصول الأربعة التالية بأمثلة تكون فيها الشعوب عرضة، بشكل أو بآخر. لتهديد القوة الغربية، فتختار الأخذ من الغرب طوعاً بشكل انتقائي مما يؤدي إلى مجموعة متنوعة من النتائج المختلفة.

obeikandl.com

obeikandl.com

٧

الإرساليات المسيحية في شرق إفريقية

أدى كلٌّ من الإسلام، والمسيحية، والبوذية دوراً رئيساً في التقارب الثقافي على مدار الألفي سنة المنصرمة أو ما قاربها. وقد يكون مثيراً للاهتمام – وإن كان بعيداً بعداً شاسعاً عن موضوع بحثنا هذا – تتبع تاريخ الدعوة والتبشير بطريقة مقارنة سعياً لمعرفة السبب الذي جعل هذه الديانات الثلاث مميَّزة إلى هذا الحد في قدرتها على اكتساب أتباع جدد من أبناء الثقافات الأخرى. لا شك في أن الجواب سيكون مختلطاً. ولكن الجواب التقريبي الأولي سيفيد بأن الديانات الرئيسة في العالم الحديث هي تلك التي تستند إلى ركيزة عقائدية تتضمن جهداً يُبذل لجذب المؤمنين، وتكون الدعوة في مستوى معيَّن. ميزةً محدَّدة لديانات العالم الحالي. من جهة أخرى، يحتوي السجل التاريخي على دلائل كثيرة عن الجهود التبشيرية العقيمة بحيث لا يمكن أن يكون هذا هو التبرير الوحيد. لذلك ربما كان ينبغي أن يقوَّم تفسيرُ تغيير الدين، في الغالب من جانب معتنق الديانة الجديدة. خلال القرن ونصف القرن الماضيين، تشابكت، لا محالة، مبادرات الإرساليات المسيحية مع الغزوات التي شنّها الأوروبيون في الحقبة الزمنية ذاتها ظهرت الرسالة المسيحية، في أغلب الأحيان، بشكل متزامن مع انتصار الجيش الغربي، وإقامة الإمبراطوريات الأوروبية. أما الطريقة التي تطوّرت بموجبها هذه التفاعلات في شرق إفريقية عامةً ومملكة يوغندا خاصةً، فتشكل موضوع هذا الفصل، لا يُعدُّ شرق إفريقية، بالضرورة، نموذجياً حتى بالنسبة لأجزاء أخرى من إفريقية، أما يوغندا فقد كانت تشكل حالةً خاصةً، إلا أنّ التطورات التي شهدتها هذه الدولة الصغيرة تمثل التعقيد الذي اتسمت به الظروف السياسية والاجتماعية من النواحي التي كانت مسرحاً للتحول الثقافي.

الوضع في شرق إفريقية

كان شرق إفريقية، في سنة ١٨٥٠، بعيداً عن مناطق النفوذ الأوروبية الاعتيادية. صحيح أن الطريق إلى الهند كانت تمرّ بشرق إفريقية؛ ولكن من بين القوى الأوروبية المهتمة بالمحيط الهندي، وحدها البرتغال حاولت أن تقيم منشأة لها على الساحل الشرقي المداري، وقد كان النشاط الرئيس للبرتغال مقتصراً في تلك الفترة، على الموزامبيق ووادي الزامبيزي باتجاه الجنوب. بذل البرتغاليون جهداً بهدف تحصين مومباسا على ساحل كينيا الحالية، ولكنهم عادوا وتخلوا عن هدفهم هذا في مطلع القرن التاسع عشر.

يظهر البحر الأحمر على الخريطة على أنه الطريق المباشر للمرور من المحيط الهندي إلى البحر المتوسط، ولكنّ الرياح تعصف باتجاه الشمال على مدار السنة في الجزء الشمالي من البحر الأحمر، مما يجعله عديم الفائدة تقريباً في عصر المراكب الشراعية، ولطالما اعتاد البحارة والتجار على تفريغ شحناتهم في مرفأ يقع في منتصف الطريق، من قبيل مرفأ جدة كي تُنقل الشحنات فيما بعد إلى الهلال الخصيب على ظهور الجمال. ولكن بحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وفَّرت المراكب البخارية إمكانية تقصير الفترة الزمنية الفاصلة بين الهند وأوروبا، باستخدام البحر الأحمر عن طريق السويس. ومع افتتاح قناة السويس في سنة ١٨٦٩، لم تعد متابعة النقل عبر السويس ضرورية.

وقبل مطلع القرن التاسع عشر، لم يكن أيٌّ من المسافرين الأوروبيين قد وصل بعدُ إلى أي جزء من الأجزاء الداخلية للقارة بين إثيوبيا في الشمال ووادي الزامبيزي في الجنوب. وحدهم العرب كانوا الدخلاء الرئيسين الذين قدموا بحراً، وقد كانوا يحظون لقرونٍ بمستقرات تجارية تمتد من القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية والخليج الفارسي وصولاً إلى زيمبابوي الحالية. ارتأى العرب أنه من المناسب أن يقيموا خطاً من البلدات المحصنة انطلاقاً من وسط الصومال على طول سواحل كينيا وتنزانيا وصولاً إلى صوفالا، على مقربة من مدينة بايرة Peira

الحالية في وسط الموزمبيق. استقر التجار العرب أيضاً في الجزر، مثل زنجيبار وبيمبا، وجزر القمر. تعود بعض هذه المستوطنات إلى حوالي ٩٠٠ للميلاد، علماً بأنها شهدت فترة من النمو المتميز في القرن الثالث عشر والرابع عشر وبلغت ذروتها في القرن الخامس عشر قبل وصول البرتغاليين من حول رأس الرجل الصالح.

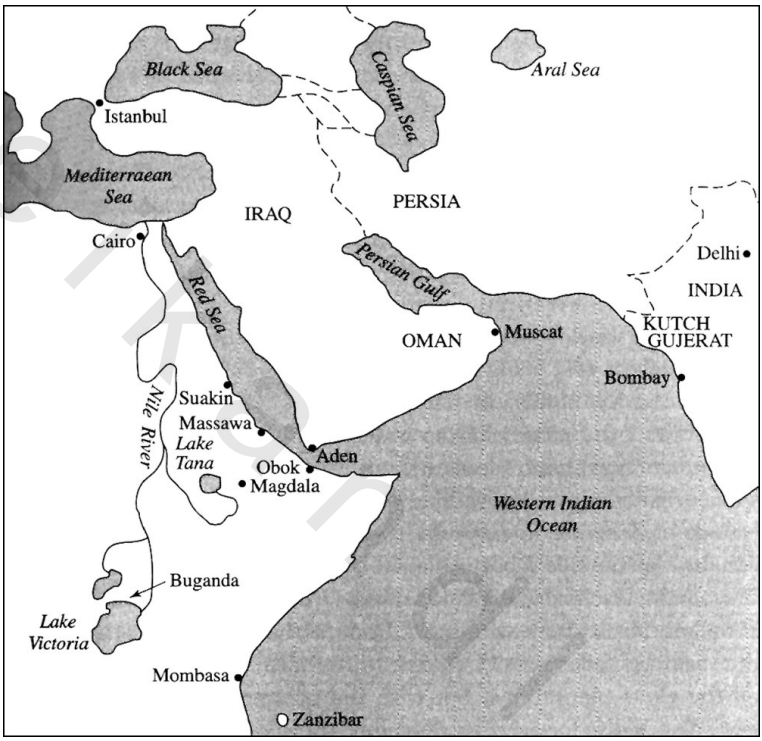

لم يحاول التجار العربُ حكم الأراضي الإفريقية، كما لم تكن إدارة المدن الساحلية تتم بشكل اعتيادي، من شبه الجزيرة العربية، لقد كانوا موجودين بهدف إقامة تجارة أساساً، ولكن على مر القرون، انبثقت ثقافة جديدة إفريقية عربية ونمت لغة جديدة تحوّلت مع مرور الوقت إلى ما يعرف اليوم باللغة السواحيلية، وقد اشتقت كلمة سواحيلي من الجذر العربي لكلمة ساحل. إن اللغة السواحيلية هي لغة بانتو إفريقية، مع أنها تشتمل على مزيج وافر من الكلمات المقترضة من اللغات العربية، والبرتغالية، والإنكليزية، يعتنق الناطقون المحليون باللغة السواحيلية الديانة

الإسلامية، يرتبطون بالتالي مع صلتهم من الشمال، مع أنهم في الواقع مجمع من مشيج عرقي مختلط استقر على هذا الساحل على مر الأجيال. في اللغة السواحيلية الحالية، يسمي الأفارقة – العرب الحاليون أنفسهم الوارابو، فيما يُطلق على العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية كلمة حضرمي نسبة إلى منطقة حضرموت الواقعة في جنوب شبه الجزيرة العربية شرق عدن.

قبل سنة ١٨٠٠، كانت تجارة هذا الساحل مع العالم الخارجي تتم أساساً مع شبه الجزيرة العربية، والخليج الفارسي، وغرب الهند. احتلت جذوع وأغصان شجر المنغروف مرتبة رئيسة بين أهم المنتجات المحلية، لأنها كانت تستخدم أعمدة وعوارض لسقوف المنازل على طول ساحل شبه الجزيرة العربية والخليج الذي لا أشجار فيه. ومن المنتوجات المهمة الأخرى أكياس وسلال القنّب المجدول التي كانت تصلح لرزم التوابل والسلع الأخرى، والعاج من النواحي الداخلية، والذهب مما يعرف اليوم بزمبابوي حيث كانت تشحن إلى وادي زامبيزي ثم تحمّل عند كِلوة قبل متابعة نقلها نحو الشمال. وشكّل العبيد صادراتٍ مهمة من الجنوب. وباختصار، كانت هذه التجارة النامية تشتمل على شحنات ضخمة الحجم متدنية القيم نسبياً بالإضافة إلى الذهب والعاج.

قبل مطلع القرن التاسع عشر، كانت هذه المعتقدات التجارية الإفريقية – العربية تنقل سلعها بالبحر وحسب. التجار المحليون الذين كانوا يديرون مراكزهم التجارية حتى الساحل كانوا يجلبون بشكل أساسي السلع من الأراضي الداخلية. طريق واحدة كانت تعبر وسط كيبني فيما كانت طريق أخرى تمر فيما يعرف اليوم بوسط تنزانيا، والثالثة على مقربة من بحيرة مالاوي، والرابعة مناجم الذهب في زمبابوي.

في مطلع القرن التاسع عشر، حدث تغيران اقتصاديان مهمان:

أولاً: ارتفع ثمن العاج ارتفاعاً حاداً، مما أدى إلى زيادة في صادراته وحفز التجار على التقدّم أكثر نحو الداخل.

وثانياً: تبيّن أن كبش القرنفل، وهو تابُل يأتي أساساً عن أندونيسيا، يمكن استنباته في ظروفٍ أفضل في جزر زنجبار وبيمباه وقد زادت مزارع كبش القرنفل الجديدة الطلب على العمالة الخارجية، فعولج الأمر بزيادة تجارة العبيد. جذبت هذه التجارة الجديدة بعض العبيد من البلاد المواجهة لزنجبار، ولكنها جذبت عدداً أكبر بعد من أقصى الجنوب، ولا سيما من منطقة بحيرة مالاوي، في بادئ الأمر، عمل معظم العبيد المستوردين في مزارع كبش القرنفل، ولكن مع مرور العقود، حوَّل بعضهم إلى إنتاج المواد الغذائية على طول ساحل ما يعرف اليوم بكينيا، بينما نقل غيرهم إلى مناطق شبه الجزيرة العربية والخليج الفارسي.

تفاعلت هذه التغيرات الاقتصادية مع التغيرات السياسية، ووصلاً حتى ذلك التاريخ، ظلّت البلدات التجارية الإفريقية – العربية عبارة عن نقاط التقاء مرتبطة بخطٍ تجاري: كانت لم تشكل إمبراطورية من المحطات التجارية خاضعة لحكم مركزي.

في مطلع القرن التاسع عشر، عندما كان الغزو البريطاني للهند في أوجه، احتاجت رئاسة بومباي في الهند البريطانية إلى دول عملية صديقة على الساحل الغربي من البحر العربي لمساعدتها على حفظ الأمن وحماية المصالح البريطانية. في الوقت ذاته، سعى سلطان مسقط في عمان لتعزيز مكاسبه التجارية، مستخدماً التكنولوجيا البحرية الأوروبية لتقوية مركزه على طول الساحل الإفريقي، في ظل رضا بومباي غير الرسمي ودعمها، وبحلول سنة ١٨٣٥، أصبحت عُمان تمتلك ٧٤ زورق مدفعية، وثلاث بارجات، وحراقتين، وسفينة حربية شراعية كلها من تصميم غربي، بالإضافة إلى الدهوات المسلحة من تصميم محلي – واحتلت المرتبة الأولى من حيث القوة بين الأساطيل البحرية غير الأوروبية في المحيط الهندي. كان من الممكن لهذه البحرية أن تعمل كامتداد غير رسمي للنفوذ البريطاني من قاعدته في الهند – وفي الوقت ذاته، أتاح لها استخدام التكنولوجيا البحرية الأوروبية فرصة التحول إلى إمبراطورية ثانوية في أي مكان كانت سفنها تصل إليه. وفي غضون بضعة عقود، تحولت المستوطنات التجارية الإفريقية- العربية إلى إمبراطورية

عمانية للمحطات التجارية. وبحلول الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، بلغت ممتلكاتها الساحلية أهمية كبيرة إلى حد اضطر سلطان مسقط لنقل عاصمته من الجزيرة العربية إلى جزيرة زنجبار حيث أصبحت مزارع العبيد المنتجة لكبش القرنفل فرعاً مهماً غير غربي لمجمَّع المزارع الخاضعة لسيطرة الأوروبيين.

ثم في منتصف القرن التاسع عشر، بادر بعض التجار الزنجباريين والسواحليين لاعتماد إمكانيات أخرى بعيداً عن السياسة المعتمدة سابقاً. إذ بدؤوا بالتحرك نحو الداخل بجالياتهم التجارية الخاصة. وظهر عندها عنصر جديد لبناء الإمبراطورية الثانوية، عندما أدخل التجار السواحليون الأسلحة النارية للمرة الأولى إلى المناطق الداخلية. أقام التجار في المناطق الداخلية مناطق نفوذ إمبريالية ثانوية لهم، كان إشعاعها ينطلق نحو الخارج من مراكزهم التجارية الساحلية، ومع أنهم كانوا يعترفون عامة بسلطة سلطان زنجبار، إلا أن نفوذ السلطان الفعلي كان معدوماً فيما وراء الساحل. حاكى التأثير الزنجباري والسواحلي في شرق إفريقي بعض مظاهر الامبراطوريات الإقليمية الثانوية في أماكن أخرى من إفريقية، بالإضافة إلى مظاهر أخرى من امبراطوريات المحطات التجارية البرية من النوع الذي ابتدعه الأوروبيون في سيبيريا وأمريكا الشمالية.

تغيرت درجة التأثير الأوروبي وشكله تغيراً كبيراً على مدار القرن التاسع عشر. اختفى من داخل البلاد التأثير غير الرسمي والضعيف الذي مارسه الدبلوماسيون البريطانيون في زنجبار. لقد شهد هذا القرن تحوّل البريطانيين من تجار عبيد مهمين على مستوى العالم إلى مانعي تجارة العبيد الخاصة بهم، وبالتالي محاولة القضاء على هذه التجارة التي كان يمارسها غيرهم. وشهد هذا القرن أيضاً سيطرةً بريطانية على المحيط الهندي. واضطرت زنجبار إلى الانصياع لضغوطات البريطانيين وخفض تجارة العبيد الخاصة بها وتزايد نفوذ القنصل البريطاني تدريجياً، إلى أن أخضعت زنجبار في سنة ١٨٩٠ رسمياً للحماية البريطانية.

بدائل تبشيرية:

وجد المبشرون المسيحيون الذين ظهروا للمرة الأولى في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، مسرحاً سياسياً مفعماً بالتعقيدات في الأراضي الداخلية من شرق إفريقيا. واجهت السلطات السياسية الإفريقية، التي كانت في يوم من الأيام معزولة نسبياً، تجاراً سواحليين من الساحل حاملين للأسلحة ومطالبين بالعاج والعبيد. سبّب الهجوم السواحيلي هروباً وحالةً من الفوضى في مناطق واسعة النطاق، ولم تبقَ سوى بعض المناطق الداخلية، لتنعم باستقرار نسبي ولم تجد الجمعيات التبشيرية أمامها سوى بديلين شاملين.

أسس المبشرون في بعض المناطق، وفي غياب دول مستقرة ونافذة، إمبراطوريات ثانوية صغيرة خاصة بهم، وبما أنهم كانوا يفتقرون لمصدر يعوّل عليه للقانون والأمن، وجدوا أنفسهم مضطرين لتأمين حمايتهم بأنفسهم كما كانوا، في بعض الحالات، مجبرين على استخدام جيوش صغيرة العدد قسم منها أوروبي والقسم الآخر إفريقي. وفي مواقع أخرى، جهّزوا ببساطة المراكز التبشيرية بأحدث الأسلحة الأوروبية، وشكلوا بذلك دوائر صغيرة من الأمن النسبي قادرة على جذب أعداد متنوعة من اللاجئين. هؤلاء اللاجئون الذين اقتُلعوا قسراً من جذورهم كانوا من بين أول معتنقي الديانة المسيحية أحضرت بعض الإرساليات أطفالاً مستعبدين سُلموا إلى «مياتم» ذاتية التمويل كانت أشبه بمزارع للعبيد تنتج منتوجات قيِّمة تعرض للبيع. أما الاختلاف الأساسي فقد كان يكمن في أن العبيد الأيتام كانوا يتمتعون بحرية المغادرة عند بلوغهم سناً معينة. أما بالنسبة لاعتناق ديانات جديدة، فقد شكَّلت هذه المياتم في ألوان العبيد تأثيراً على الشباب الذين اقتلعوا من جذورهم وأعيد زرعهم في مجتمع جديد. أما البديل الثاني، فقد قام على التعامل مع ممالك أقوى أينما وُجدت. ولا سيما في منطقة البحيرات الكبرى من قبيل فيكتوريا وتانجانيقا. كانت بعض الممالك، مثل يوغندا وبونيورو، قد سلحت نفسها

بالبنادق وبدأت ببناء إمبراطوريتها الثانوية الخاصة حتى قبل وصول المبشرين. هذا الأمن النسبي هو بالتحديد العنصر الذي جذب المبشرين، وبما أن السلطات الإفريقية كانت مستعدة لتقبلهم وحمايتهم. فقد رحبوا بفرصة هداية الناس من دون الحاجة لإدارة دولة وحدهم. أما التصوّر الأبرز فقد تمثَّل بإمكانية هداية ملك إفريقي وهو ما من شأنه أن يؤدي إلى توسيع إطار انتشار الدين على كل المستويات.

مملكة بوغندا:

إنّ مملكة بوغندا، وهي مركز جمهورية أوغندا الحالية، مثال معروف وبارز للتفاعل بين المبشرين الأوروبيين والقوى الاجتماعية، والسياسية المحلية، اقتبست تسمية أوغندا الحالية من التحوير السواحيلي لكلمة بوغندا، ولكن مساحة بوغندا

– كابا كاموسيسي وموظفوه الأساسيون –

ما قبل الأوروبية كانت أصغر من مساحة جمهورية أوغندا الحالية[1]. فقد كانت تشغل مساحة مئة ميل أو ما قاربه انطلاقاً من الضفة الشمالية لبحيرة فيكتوريا، في نصف دائرة امتدت إلى غرب هذه النقطة حيث يصب نهر النيل عند خروجه من البحيرة. ولكن عدد السكان كان كثيفاً داخل هذه المساحة الصغيرة

(١) الكيسوا حيلي واللواغندا لغتا بانتو تستخدمان أدوات التصريف. الباغاندا هم سكان مملكة بوغندا وينطقون بلغة اللوغندا. يسمح استخدام اللغة الإنكليزية الجذر دون أدوات التصريف على غرار غاندا.

حيث إن العدد الإجمالي بلغ المليون أو المليونين. في المملكة، كان الحاكم الحامل لقب كاباكا، وهو موميّسا الأول (١٨٥٧ - ١٨٨٤)، قد أوصل البلاد إلى ذروة التأثير السياسي والنفوذ العسكري . وفي أثناء حكمه، أخذت بوغندا تعتمد على بندقية المسكيت على أنها سلاح المشاة الرئيس، حصل البوغنديون على أسلحتهم من التجار السواحيليين الذين قدموا من الساحل وفي مقابل العاج والعبيد الذين كانوا يحصلون عليهم بقوة السلاح. وبدورها، وفرت الأسلحة لبوغندا القدرة على التحوّل إلى إمبراطورية ثانوية.

مصدر القوة الثانية التي تميزت بها بوغندا في بناء الإمبراطوريات تمثلت في تشكيلتها السياسية، تستند معظم التشكيلات الإفريقية على النسب، أي على مجموعة من الأشخاص ينحدرون من سلف مشترك. قد يكون النسب من جهة الأب أو من جهة الأم أو أحياناً ثنائي الجانب. وكانت الأنساب، في العديد من الممالك الإفريقية مستند الحكم داخلياً أما النفوذ الأوسع للحكومة الملكية فيتمثل في قيامها بالتحكيم في النزاعات بين مجموعات النسب المتنافسة.

في الماضي، عملت مملكة غاندا على هذا النحو، وقد اجتمعت الأنساب الفردية في كل قرية ضمن ثلاثين عشيرة، أو وحدات أكثر عدداً من الأقارب، على رأس كل منها شيخ. شكل هذا النظام مشكلةً للملك. فبموجبه لم يعد يستطيع أن يحكم إلا من خلال شيخ العشيرة. والغرب احتفظ بمركزه من خلال النسب، وبالتالي تمتع بمصدر للنفوذ مستقل عن الكاباكا. وقد يقرر ملك من الملوك أن يحدّ من سلطته أو يخلعه من مركزه. ولكنّ قد ينتج عن قرارٍ من هذا القبيل امتعاض شامل من جانب أفراد العشيرة.

اتخذ كاباكا بوغندا منذ زمن طويل خطوات تهدف لإيجاد حلّ لمصدر هذا الضعف الملكي. وبحلول القرن الثامن عشر، بدأ تعيين زعماء من خارج تراتيبة سلطة الأقارب. وكان في مقدور الكاباكا الذي عيّن هؤلاء الزعماء أن يخلعهم من مراكزهم أيضاً. أطلق على الزعماء من الطراز الجديد تسمية باكونغو bakungu أو الزعماء

– العملاء وبحلول السبعينيات من القرن التاسع عشر، شغل الزعماء – العملاء معظم المراكز، بما فيها منصب رئيس الوزراء، ورئاسة إدارة الإقليم، وهذا يعني التحكّم بالطبقات الدنيا من الحكومة. والأهم من ذلك بعد، تمتع الكاباكا بقوة عسكرية من المحاربين شبه المتمرسين المتناثرين في كافة أنحاء البلاد. كان الكاباكا يعيّن أيضاً الضباط بالطريقة ذاتها التي كانوا يعيّنون بها الشيوخ – العملاء. وقد كان الضباط يعملون عمل القوة الموازية في مواجهة القوى المستقلة الباقية لزعماء العشائر، وفي مواجهة أي زعيمٍ – عميل قد يسعى لتمديد مدة نفوذه إلى أَجَل يفوق ما قد وهبه إياه الملك.

تمتع الزعماء – العملاء، في أعلى المستويات، بسلطة تعيين شيوخ تابعين في مراتب الحكم، وفي الواقع كان لهم شيوخ عملاء مرتبطين بهم. تحكَّم هؤلاء الزعماء، ضمن الإدارة الإقليمية، بتخصيص الأراضي، وبالتالي بالأموال التي تمتلكها البلاد من أعمال الفلاحين المستعبدين والأحرار على حد سواء.

وفَّر النظام تركيزاً غير اعتيادي للنفوذ في مركز المملكة، على حساب حالة من عدم الاستقرار الشامل عمّت ملكية الأراضي في مرافق الحكومة. فقد يشغل رجل ما منصب رئيس الحكومة في يوم من الأيام ويصبح زعيماً مهماً في اليوم التالي. وحدهم أفراد العشيرة الملكية التي ينتمي إليها الكاباكا يحصلون على حقوق خاصة منذ الولادة. نزعت هذه المرونة وحالة الاستقرار إلى تنمية نمط معين من الحياة السياسية كانت تلقي بثقلها من وراء المزايا المخادعة، والسرعة التكيفية في المناورات السياسية بالإضافة إلى رجال طموحين يشخصون بالنظر على الدوام بانتظار الفرصة السانحة. في بلاط الكاباكا، على وجه الخصوص، وهو أشبه بقرية عدادها خمسة آلاف نسمة، وجد القسم الأعظم من السكان أنفسهم داخل لعبة مستديمة من دسائس البلاد.

التهديد الخارجي:

لم تعد بوغندا تشعر بالخوف منذ أن أصبحت الأسلحة في حوزتها. وقد كانت جارتها الأكثر قوة، أي بونيورو، تستخدم أسلحة مستوردة أيضاً وتبني امبراطوريتها الثانوية الخاصة بها. ولكنّ القوة المستمدة من الأسلحة تهديداً يؤخذ على محمل الجد. وبحلول سنة ١٨٧٠، كانت قيادة الغاندا ملمّة بما يكفي من المعلومات عن مصادر الأسلحة. وكانت القوافل السواحلية تفد من الساحل، منذ عدة عقود، حاملةً في جعبتها معلومات عن العالم خارج إفريقيا، وأُطلقت عرضياً الخطوة الأولى لعملية هداية الغاندا إلى ديانة خارجية، وفي هذه الحالة الديانة الإسلامية.

في منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر، ظهر غرباء جدد ولكنهم قدموا هذه المرة من الشمال، كانوا موظفين أوروبيين يعملون في خدمة الحكومة المصرية، منخرطين في حملة هدفها رقعة الإمبراطورية المصرية الثانوية في السودان. زار تشايلي لونغ Long Chaille وهو أميركي يعمل في خدمة المصريين، عاصمة موتيسا ثم انسحب ليقيم مركزاً عسكرياً مصرياً. خارج بوغندا مباشرة باتجاه الشمال. وما إن ظهر التهديد المصري الخارجي في الشمال حتى خرق عبر أوغندا مستكشف أوروبي آخر هو هنري مورتن ستانلي، صحافي أميركي تعود أصوله إلى ويلز، كان يعبر إفريقية من الشرق إلى الغرب برعاية صحيفتي نيويورك هيرالد ودايلي تلوغراف، بأنّ موتيسا كان شديد الاهتمام بالمسيحية، وتحدّى الجمعية التبشيرية البريطانية في أن تستغل هذه الفرصة. ومهما كانت الكلمات التي نطق بها ستانلي فعلياً، وبغضّ النظر عن فهم معانيها من المترجمين، فما من شك بأنّ ستانلي ذكر رأيه بأنّ بريطانيا هي الدولة الرئيسة في أوروبا. وأياً يكن الاهتمام الذي كان يوليه موتيسا بالمسيحية، فقد كان مهتماً من دون شك بوجود مبشرين أوروبيين في بلاطه بغية موازنة التهديد الذي كان يشكله المصريون المسلمون في الشمال والسواحليون المسلمون في الشرق.

بالنسبة للجمعيات التبشيرية البريطانية، تشكّل الحملة إلى بوغندا خرقاً بارزاً في السياسة التي كانت تعتمدها الإرساليات المتقدمة تدريجياً إلى المناطق الداخلية انطلاقاً من الساحل. تبلغ مسافة الطريق المؤدية من الساحل الشرقي إلى بوغندا حوالي ٨٠٠ ميل، ووحدها قوافل الجمّالين تستطيع سلوكها. كان بالإمكان استخدام طريق طويلة نحو أعلى النيل ولكن هذه الطريق أيضاً كانت باهظة التكاليف. من الناحية السياسية، كانت البلاد الواقعة بين الساحل وبحيرة فيكتوريا المجزأة، ولذلك اضطرت القوافل لتأمين حمايتها بنفسها وشق طريقها بقوة السلاح. في كل الأحوال، كانت كلفة الجمال باهظةً للغاية، ولو كان الأمر يتعلق بنشر الديانة المسيحية، لكان بالإمكان القيام بها بأسعار أقل بكثير في أماكن أخرى. من جهةٍ أخرى، أشار تقرير ستانلي حول اهتمام موتيسا إلى أنّ بوغندا تمثّل فرصةً مثاليةً لهداية شعبٍ بأسره من خلال دعم الملك.

ولسبب من الأسباب، قدّم راهبٌ مجهولُ الهوية للجمعية الكنسية التبشيرية مبلغاً قدره ٦٥٠٠ جنيه استرليني، بشرط أن تخرق الجمعية سياستها المتَّبعة في التوسع التدريجي، إرساليةً في بلاد موتيسا، وتلقت الجمعية أيضاً عرضاً من غوردون باشا، الحاكم الانكليزي لأقاليم مصر الاستوائية، لمساعدتها في تحقيق المزيد من الأهداف السياسية الواضحة في حال اختارت الجمعية طريق النيل. كان غوردون يمثّل مصر، ولكن مصر كانت تنجرف، على شاكلة زنجبار، نحو حكم بريطاني غير رسمي. قررت اللجنة المركزية للجمعية أن تقبل العرضين، ووصلت طليعة المبشرين إلى بلاط موتيسا في سنة ١٨٧٧ بعد أن سلك بعضهم طريق زنجبار، والساحل الشرقي، فيما وصل غيرهم عن طريق النيل بمساعدة ضباط مصريين.

لم يطل الأمر حتى ظهر خرقٌ آخر للسياسة المتَّبعة في إطلاق الحملات. استرعت بوغندا أيضاً انتباه الرهبنة الكاثوليكية للآباء البيض. تأسست هذه الرهبنة على أيدي الكاردينال لافيجري أوف ألجي، بهدف هداية مسلمي الصحراء الكبرى وشمال إفريقية بشكل رئيس إلى الدين المسيحي. وكانت من ثَمّ جمعية

تبشيرية ذات هدف خاص قليلة الخبرة في شرق إفريقية، ولم تكن قد أنهت بعد مهمتها الأولى في الشمال. إلا أن لافيجري قرر أيضاً إقامة مركز تبشيري في بلاط موتيسا في بوغندا. ووصل أول الآباء البيض في سنة ١٨٧٠، أي بعد سنتين فقط من وصول جمعية الكنيسة التبشيرية.

لا بد أن يثير وصول هاتين المجموعتين التبشيريتين إلى هذه النقطة الاستراتيجية والمهمة في الأراضي الداخلية القاصية من إفريقيا تساؤلات حول دوافعهما. في أواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر، لم يكن الغزو الأوروبي لإفريقية قد صار شاملاً ولكن قد تساور المرء شكوك حول الضغوطات الحكومية. أو بإمكان التوسع في التنمية التجارية المرتقبة. في الواقع، لم يكن الدليل الذي يثبت التدخل الحكومي التجاري أو المباشر يعتدّ بقوته. عرض ليوبولد ملك بلجيكا معونةً ماديةً على الآباء البيض، وقد كانت له مطامع في الأراضي الإفريقية، ولكن الآباء البيض ردوا عليه بالرفض خوفاً من أن يسيطر بشروطه على سياسة الإرسالية. في السبعينيات من القرن التاسع عشر، كانت الحكومة البريطانية تتبع سياسة تقوم على عدم احتلال أراضٍ في شرق إفريقية، وشجبت مؤخراً تصرفات المسؤولين الذين حاولوا القيام بأعمال مماثلة، وقد كانت فرنسا تشارك بريطانيا في النفوذ في تلك الفترة على غرار السلطة التي كانت لبريطانيا في مصر. أما بالنسبة لنفوذ الحكومة الفرنسية، فقد تقدم لافيجري بطلب مساعدة من الحكومة وحصل على رفض واضح.

لم تكن المصالح التجارية مهمة في بوغندا. فقد كانت هذه البلاد بعيدةً كل البعد عن إطار الاستثمارات الممكنة في مجالات التجارة، أو المزارع، أو المناجم. وكلف النقل أسعاراً باهظة لكل المنتوجات من خلال مُنْتَج واحد مرتفع القيمة بالنسبة لوزنه ألا وهو العاج. قد يقلب تشييد سكة حديدية الوضع بأكمله، ولكن عندما قرر البريطانيون، في التسعينيات من القرن التاسع عشر، أنّ السكة الحديدية، باتت ضرورية لأسباب استراتيجية، فشلوا في الحصول على رأس المال الكفيل لبنائها. في

نهاية المطاف، شيدت الحكومة السكة الحديدية على حساب الرعايا البريطانيين، وأدارتها بخسارة كبيرة.

من المحتمل أن تكون الجمعيات التبشيرية التي حفزتها إمكانية هداية ملك مهم، قد مارست ضغوطات خاصة بها للتحرك داخل بوغندا، بالنسبة لأعضاء جمعية الكنسية التبشيرية، فقد ارتبطت حركتهم بإيمانهم بأن تكون الإرساليات بالضرورة ذاتية الدعم، ذاتية الإدارية وذاتية الانتشار. إن مملكةً مسيحية هي الموقع الطليعي الذي يمكن أن ينطلق منه غاندا في مهمة هداية الآخرين، مستخدمين في ذلك خبرة جمعية الكنيسة التبشيرية باستخدامها الفعلي للإرساليات الإفريقية في غرب إفريقيا.

دوافع مغايرة كانت تدور في خلد الكاردينال لافيجري. اتصف هذا الرجل بشخصية طموحة محبة للسياسة، كما كان مواطناً فرنسياً يسعى لتحسين العلاقات المتوترة بين البابوية، والجمهورية الفرنسية، كان يأمل أيضاً باستخدام الآباء البيض في موقع ما في منطقة البحيرات الإفريقية، لصالح الكنيسة وفرنسا على حد سواء. ويبدو أن هذه الاعتبارات تقف وراء مفاوضاته الفاشلة مع ليوبولد ملك بلجيكا. فقد كان لافيجري يرفض أن يعتبر الآباء البيض القوة الدينية في مخطط ليوبولد ملك بلجيكا في الكونغو. وتقبّل، في وقت لاحق، القيادة التبشيرية على الجزء الشرقي من دولة الكونغو المستقلة، إنّ إقامة دولة مسيحية كاثوليكية في قلب إفريقيا يحكمها الملك بمشورة المبشرين الفرنسيين مفيدة لتحقيق العديد من طموحاته. ثم إنّ الآباء البيض منظمون على أحسن وجه لمثل هذا الأثر، وهم في ذلك أفضل تنظيماً من جمعية الكنيسة التبشيرية. أُرسل الآباء البيض ضمن مجموعة من المهتدين السابقين ليعملوا على سبيل المثال، عمل الضباط في جيش تبشيري خاص ممن وظفوا، ودربوا في الداخل لحماية الإرساليات – ولأي مصلحة أخرى قد تبرز في وقت من الأوقات.

الإرساليات ومجتمع الغاندا:

لا بد أن المسائل بدت مختلفة تمام الاختلاف من وجهة نظر الغاندا. فلم يكن أي قاسم مشترك يجمع بين تصوّر موتيسا والصورة السطحية التي رسمها ستانلي عنه، بأنه يتوق لتعلم المزيد عن المسيحية عقب وصف مقتضب لهذه الديانة من خلال مترجم. كان موتيسا سياسياً بارعاً ناجحاً بفضل تمكّنه من إقامة توازن بين مختلف أنواع القيادات، وكذلك بسبب إقامة توازن بين مصالح الآلهة المحليين المختلفين الممثَّلين بالزعماء الدينيين الذين كانت تربطهم، في أغلب الأحيان، علاقات مع عشائر معينة. لم تشكل إمكانية إضافة المسيحيين إلى هذه المعادلة من أجل موازنة التأثير المتزايد لمسلمي زنجبار غير إضافة طبيعية للمعادلة.

رأى موتيسا، أنّ المسيحيين يعرضون المعرفة التكنولوجية، والتصور الاستراتيجي عن العالم المهدَّد فيما وراء منطقة البحيرات الإفريقية، يمكن استخدام معرفة المبشرين في عملية التحديث الدفاعي، فقد سبق للغاندا واستعملوا الأسلحة النارية وأعادوا تنظيم قوتهم العسكرية، وشعر المبشرون بتوق لتلقين الآخرين التقنيات المهمة التي كان الغاندا يفتقرون إليها، مثل تعلم القراءة والكتابة، وعرض الإسلام أيضاً ميزات مماثلة، ولكن موتيسا ارتأى أنه من الضروري الحصول على مصادر متعددة للمعلومات الخارجية والتكنولوجيا، وتبدّل توقه لتعلم المزيد عن الدين المسيحي بشكل مباشر مع التغييرات الحاصلة في الخطر المصري. وصل هذا الخطر إلى مستوى مرتفع في منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولكن المصريين انسحبوا، في سنة ١٨٧٩، إلى مسافة من أسفل النيل، في سنة ١٨٨١ انفجرت ثورة مناوئة لمصر في السودان، في جنوب الصحراء مباشرة، ادعى زعيم ديني مسلم علي محمد أحمد بأنه المهدي أو المخلص، وقطعت قواته أي اتصال مباشر بين مصر والكتيبة المصرية في المنطقة الاستوائية، فوجدت هذه الأخيرة نفسها معزولة بقيادة ضابط ألماني.

عقب هذه الأحداث، لم يعد للمبشرين المسيحيين في بوغندا أي مزايا ولكنهم أبقوا تحسباً لإمكانية العودة إليهم مجدداً، وسُمح لهم بهداية الناس حسب مقدرتهم. لم يحالفهم الحظ في البداية، ولكن فضول الغاندا كان عنصراً لصالحهم. استخدمت الإرساليات طموحات الحاشية المحيطة بالكاباكا للبحث عن فرصة تعينُهم في حياتهم المهنية، فزار العديد من أفراد الحاشية ولا سيما من الموظفين الشباب، الضباط العسكريين الشباب. والإرساليتين ليعرفوا إن كانتا تستطيعان أن تقدما لهم أي فرصة محتملة في السياسات المحلية. وطول حياة موتيسا، لم تسبب المنافسة الدينية أي حدث خطير في البلاط، ولكن في منتصف الثمانينيات من القرن التاسع عشر تطوّر الوضع وشكل تهديداً حقيقياً. ونشط ليوبولد ملك بلجيكا في حوض الكونغو في الغرب. واحتل الألمان ساحل تانجانقا في الجنوب الشرقي، وشغل البريطانيون ساحل المحيط الهندي. والأكثر من ذلك، زادت وتيرة زيارات الزنجباريين، واعتنق التجار الديانة الإسلامية بأعداد كبيرة على هامش نشاطاتهم التجارية. بات موتيسا رجلاً مسناً، ولاح في الأفق احتمال نشوب صراع على الخلافة. اصطف بعض الزعماء – العملاء والضباط العسكريين إلى جانب الإرساليات الكاثوليكية، أو البروتستانتية أو الزنجبارية، آملين في أن يضمنوا مصدراً للأسلحة النارية والمعلومات عند انفجار الأزمة، مع العلم بأنّ موتيسا نجح في سنينه الأخيرة في تأليب الأطراف على بعضها.

وعندما توفي موتيسا أخيراً في سنة ١٨٨٤، انفجرت الأزمة. في مطلع سنة ١٨٨٥، انتقلت السلطة إلى موانغا، أحد أبناء موتيسا. والذي كان يفتقر لقدرات والده وذكائه. كما كان أيضاً يفتقر للنفوذ الذي كان يتمتع به والده في المملكة لأسباب مختلفة نذكر منها الظهور المتزايد للأسلحة النارية. ومع أن حيازة الأسلحة فتحت المجال لبوغندا كي تبني اثانوية، فقد سبّبت أيضاً تحولاً مهماً للسلطة داخل بوغندا ذاتها. ابتاعت الملكية الأسلحة من الساحل، ولكنها خصّصتها لتشكيلات عسكرية خاصة، وواجه موانغا بعض الصعوبة في إبقاء كتائب الشباب تحت

سيطرته الحصرية. عززت سياساته نفوذه الاستبدادي لكنها زادت في الوقت ذاته من سطوة الجيش. وارتبطت بعض الكتائب داخل الجيش ببعض الزعماء – العملاء وبالمهتدين من المجموعات الدينية الخارجية الثلاث. ولكن التحوّل الرئيس في السلطة لم يكن له صلة بزعماء العشائر كمجموعة ولا بالكاباكا نفسه بل بالقادة الشباب للتشكيلات العسكرية.

وتفاقمت مشكلات موانغا عند اقترافه عدداً من الأخطاء، ومنها تقدير خاطئ من جانبه للوضع الدولي، وصل به الأمر إلى حد الاعتقاد بأن زنجبار كانت تمثل القوة الخارجية الأولى ولذلك فقد لاذ –في بادئ الأمر– بالطرف المسلم الموجود في البلاد. شاعت الممارسات اللواطية في البلاط أكثر من ذي قبل وكذلك الأمر بالنسبة لموانغا نفسه، بالرغم من تعارض ذلك مع أفكار الغاندا الأخلاقية والمسيحية الفيكتورية، أغضبت هذه الليبرالية الجديدة أيضاً بعض الرجال في سدة الحكم الذين كانوا قد أحضروا أقاربهم الصغار للعمل كوصفاء في البلاط. هؤلاء الوصفاء كانوا من بين الذين لجؤوا إلى الإرساليات بحثاً عن الدعم والنصيحة. وفي سنة ١٨٨٦، عندما بحث موانغا عن شركاء يمارس معهم الجنس من بين أفراد هذه المجموعة، قاومه البعض. وأرعبت هذه المقاومة الكاباكا، وأشعلت النار في أجساد حوالي الأربعين من الوصفاء الذين كانوا من «القراء» في الإرساليات. اضطُهد عدد من الكاثوليك من ضمن هذه المجموعة منذ ذلك التاريخ. ولم ينفّر هذا الاضطهاد المسيحيين جميعاً. وسرعان ما استعادت بعض المجموعات المسيحية مكانتها السابقة في البلاط، ولكنها أخافت القادة الشباب في الجيش، وفي سنة ١٨٨٨، استولى حلف جمع بين الكتائب الدينية المسلمة والمسيحية على القصر وأرسل موانغا إلى المنفى.

كان لا بد أن يعود موانغا من منفاه في يوم من الأيام، ولكن نفيه للمرة الأولى تسبّب في إشعال حرب أهلية معقدة، رباعية الأطراف، بما أن الكتائب كانت موزعة حسب المعتقد الديني بالإضافة إلى التواترات السياسية الأولى التي كانت تحيط بعملية توزيع القوى في مملكة الغاندا. بحلول ذلك الوقت، سيطر كل من

البروتستانت، والكاثوليك على حوالي ألف جندي من حملة البنادق. أما المسلمون فقد كانوا يسيطرون على عدد أقل، ولكن العدد الأصغر من التابعين كان يعود لعبدة الآلهة القديمة. مرت الحرب بمراحل من التحالفات المتحوّلة. أولاً: هزم الموحِّدون كمجموعة موحدة للتقليديين، ثم انضمت الفرقة المسيحية بعضها مع بعض في مواجهة المسلمين. وأخيراً دخل البروتستانت في صراع ضد الكاثوليك. في هذه المرحلة بالذات، أي في ربيع سنة ١٨٩٢، تدخّل عملاء قوة أوروبية. أرسلت الشركة البريطانية الإمبريالية في شرق إفريقيا قوة قليلة العدد من الفرق السودانية بقيادة الكابتن فريدريك لوغار، الذي أصبح لاحقاً من أبرز الإداريين في الحكم البريطاني لإفريقيا. قوة هذا الكابتن كانت صغيرة ولكنه كان يملك مدافع ماكسيم. وبالتالي اختتم هذا الوضع بالفوز العسكري المباشر لصالح الفريق البروتستاني، ومهّد ذلك الطريق أمام ضم بريطانيا لبوغندا في سنة ١٨٩٣.

الثورة الدينية في بوغندا:

فتحت هذه الأحداث، ابتداءً من وصول المبشرين في سنة ١٨٧٧ حتى عملية الضم البريطانية، المجال أمام الفريق المسيحي التشكيل صوت اجتماعي وسياسي مهيمن في بوغندا في ظل الحكم البريطاني. ابتداءً من سنة ١٨٩٣، لم يكن وضعهم قد أصبح محكماً بالكامل، ولكنهم كانوا في طريقهم للتحول إلى حكم أقلية مناصرة للتحديث تتمتع بتأثير مهيمن على سائر الغاندا وصولاً إلى القرن التالي، وهي مرحلة من تاريخ الغاندا ستتم دراستها في الفصل التالي. في الوقت الراهن، كان الموضوع يختص بالتفاعل بين الإرساليات المسيحية، وبوغندا التي هيأت لإطار التحوّل أو لقصة من أكثر قصص النجاح أهمية وجذريةً في تاريخ المسيحية الإفريقية. لقد كانت إحدى الحالات الرئيسة في الدراسات التي سعت لتفسير السبب الذي جعل ديانةً من ديانات العالم تحل محل نظام من المعتقدات في إطار جغرافي محدود، والطريقة المتبعة في هذا الصدد. كتب روبين هورتون، دراساتٍ شكلت التفسير المعتمد لعملية التحول الإفريقية. وهو يعتقد أنّ الإطار الآخذ في

الاتساع للاتصال مع العالم الخارجي مهدّ الطريق أمام الديانات العالمية. تتضمن العديد من الديانات آلهة مرتبطة بأماكن، أو أنساب، أو وظائف معينة، من قبيل التحكم بالجدري أو الرق والمطر. ومع ابتعاد المجتمعات عن الزراعة: الفردية، وانفتاحها على منطق أوسع مساحة للاتصال المتبادل، لم تعد الآلة المتخصصة أو المحلية ترضي الناس بالمستوى ذاته، وبدأ الناس يتوجهون إلى آلة متفوقة شاملة القدرات، يفيد تفسير هورتون في الإشارة إلى الشروط التي تتكرر في العديد من الأماكن المختلفة، ولكن ينبغي أخذها بالاعتبار بجانب أسباب محلية. في حالة الغاندا، اعتنق الناس ديانةً جديدةً بمزيدٍ من السرعة وبشكل أكثر اكتمالاً بالمقارنة مع غيرهم في شرق إفريقية، وفي حقبة زمنية كانت فيها شرق إفريقية تقيم للمرة الأولى اتصالات أكثر قوة مع منطقة الاتصال المتبادل في المحيط الهندي، أعقبها الحكم الاستعماري الأوروبي.

بالإضافة إلى هذه الظروف العامة، يعدّ دور الإرساليات في بوغندا التي ضمت لبريطانيا حالة تقليدية في تاريخ إفريقية حيث سبق وصول المبشرين الحكم الاستعماري، وكان المبشرون فيه مسؤولين، إلى حد كبير، في ضم قطعة من الأراضي الإفريقية . ففي هذا المكان، ينطبق القول التالي أكثر من أي مكان آخر: أعلى الراية الصليب. لقد كانت حالة غاندا أيضاً مثالاً من الأمثلة القليلة في إفريقية التي تصارع فيها الكاثوليك ضد البروتستانت باسم الدين. في مواقع أخرى، من قبيل إيرلندا الشمالية، عبرت العداوات الدينية عن توترات اجتماعية وسياسية تعود إلى قرون طويلة خلت، أما في بوغندا، فقد كان السكان يتحاربون باسم ديانة اعتنقوها للتو.

يمكن أن تؤدي هذه العوامل غير الاعتيادية إلى التفاعل بين النظام السياسي الغاندي والإرساليات الأوروبية في زمن وحيز فريدين. تتضمن قائمة الممثلين على خشبة هذا المسرح الشيوخ – العملاء والضباط العسكريين الذين انضموا للإرساليات وكانت تحفزهم دوافع بدت واضحةً للعيان. لقد كانت مناصبهم وحياتهم

نفسها في قبضة حاكم مزاجي. وكان بمقدور الإرساليات الحصول على الأسلحة وتقنيات أخرى نافعة جذبت اهتمامهم. كان المقيمون في بلاد الغاندا معتادين على حياة سياسية تنافسية، حيث يتعلق بقاؤهم بإزالة العقبات التي تعترض طريقهم. ولا نقصد بهذا التقليل من شأن اعتناقهم للمسيحية، إلا أنهم شكّلوا حالةً عززت فيها المصلحة الشخصية والمبدأ الديني أحدهما الآخر.

في الإطار الزمني، يبدو من الواضح أنّ ظروف الغاندا السياسية فاقت من حيث الأهمية مبادرات المبشرين. تدخل المبشرون على أمل أن يجدوا ظروفاً سياسيةً محلية مؤاتية. على المدى الطويل، أصبحوا مشاركين مهمين، مع أنهم لم يكونوا الزعماء الفعليين في الصراعات السياسية الغاندية. صحيح أنهم كانوا عناصر مهمة أولجت بوغندا في العالم الخارجي الواسع، ولكنهم كانوا منعزلين في عالم الغاندا الضيق. لقد كانوا في قلب إفريقية منهمكين في السياسة الغاندية إلى حد صعب عليهم رؤية ما هو أبعد من إطار عملهم الخاص وأموال تابعيهم. لقد كانوا منعزلين في مكان بعيد خارج منطقة نفوذ أوروبي بحيث لم يكن أمامهم سوى خيار العمل بما يتناسب مع معايير المجتمع الإفريقي والاستجابة لردوده.

بالنسبة لهؤلاء الغرباء. بدا اعتناق بعض الشخصيات المرموقة في مراكز عالية لديانة جديدة لتحولات جماعية من ديانة إلى أخرى في المستويات الدنيا، تماماً كما انتقلت سلطات التعيين في أثناء حكم موتيسا من الزعماء – العملاء إلى المستويات الدنيا من المجتمع. هكذا تطورت الأمور إلى حد ما. ظهر النجاح في قمة مجتمع الغاندا نهائياً. لو تمكن البروتستانت من السيطرة على الكاباكا لأصبح الزعماء الفرعيون الكاثوليك عرضةً للفصل من مناصبهم. وفي حال حدوث ما سبق ذكره، ينبغي على المبشرين الكاثوليك أن يضعوا حداً، على وجه السرعة، لحلمهم في بناء «مملكة كاثوليكية يسودها العدل في قلب إفريقية»، كما وصفها أحدهم وفتح المجال للمبشرين البروتستانت لاعتبار النصر لصالح الفرقة الكاثوليكية هدماً لكل ما حققوه من أعمالٍ وليس كعائقٍ مؤقَّت.

بذل الطرفان جهوداً كبيرة، ولم يسعيا لمد يد المساعدة لتسليح أتباعهم وحسب، بل أيضاً لجذب التدخل الأوروبي نحو قضيتهم. وفي نهاية المطاف، تدخل البريطانيون بالفعل، ولكن العمل العسكري الذي قام به لوغار لصالح البروتستانت لم يجر وفقاً لمخطط رسم في لندن بل وفقاً لما ارتآه مسؤول يتمتع بسلطة اتخاذ القرار بنفسه، وأصبح قراره منوطاً بالممثلين المستقبلين - على غرار العديد من القرارات الهامشية الأخرى خلال عقود التقدم الامبريالي. في الواقع، لم يؤدِّ عمله العسكري لصالح البروتستانت إلى حل «الفائز يحصل على كل المكاسب» كما كان يخشاه بعض المبشرين، فبعد عملية الضم التي قامت بها بريطانيا وإقامة حماية على أوغندا، عزّز البروتستانت موقعهم بوصفهم الأعضاء البارزين في حكم الأقلية المناصرة للتحديث، دون أن يتم إقصاء الكاثوليك. وخفف وصول المبشرين الكاثوليك الإنكليز من حدة المنافسة الضمنية الإنكليزية - الفرنسية في المجال الديني. ولكن منذ فترة غير بعيدة، مثلت بعض الأوجه في نظام عيدي أمين إعادة تولد لبعض المشاعر المعادية التي كان يكنها المسلمون في الماضي حيال السيطرة المسيحية.

obeikandl.com

٨

أشكال متنوعة من التحديث الدفاعي

تُعنى الدراسات الأربع التي تشكل هذا القسم، بشكل عام، بالتحوّل الثقافي الذي بدأ بمبادرة من المستعمرين للتحديث. حتى عندما صدرت المبادرة عن المبشرين المسيحيين، فقد كانت قرارات السكان المحليين حاسمة، كما حصل للغاندا. واجهت الإرساليات الأخرى التي تطرح برامج مماثلةً ظروفاً مغايرة فيما وراء البحار، وأحرزت درجاتٍ مختلفةً جذرياً من النجاح. ولكن تم تعريف التهديد الغربي، بأكبر قدر من الوضوح، على أنه عسكري وسياسي، واستجاب له غير الغربيين، في أكثر الأحيان، من خلال اقتراض كل ما في استطاعتهم اقتراضه من التكنولوجيا العسكرية والتنظيمية، كما أنه يعمل عمل خلفية لاعتبار أكثر تفصيلاً للتحديث في اليابان وتركيا في الفصلين التاليين.

ولكن من المهم أن نرجع إلى الوراء زمنياً وصولاً إلى أنماط أولية وأساسية لتاريخ العالم تكون أوسع نطاقاً من تلك التي تختص بالغرب ودول العالم الأخرى، والبدء من جديد على مقربة من البداية من خلال انتشار الزراعة، ولا يشير ذلك إلى بدء حقبة من الحقبات الرئيسة في تاريخ العالم، بل إنها تطرح أسئلة مهمة حول دور الاستنبات والابتكار المستقل في التغيّر التاريخي.

انتشار الزراعة:

يرتبط النقاش القديم بالأهمية النسبية لنشر المعرفة في مقابل الابتكار المستقل. على سبيل المثال، بنى كل من المايا والمصريون القدامى الأهرامات. فهل حصل المايا بشكل من الأشكال على معرفة هذا المجال من المصريين؟ ما من شك بأنّ أهرامات المصريين سبقت غيرها زمنياً ولذلك فربما تكون قد قُلِّدت كما أن كلاً من المايا

والمصريين بنوا أهراماتهم لأغراض شعائرية. وتعددت أسباب رفع الهضبات والتلال الاصطناعية بتعدد منفذيها إلى حد يحثنا على التأكد بأن أعيد ابتكارها المرة تلو المرة على مر التاريخ البشري. يمثل المقياس المختلف بين أهرامات المايا والمصريين، والأغراض الشعائرية المتنوعة دليلاً يعتد به ضد النشر، ولكن المشكلة تتكرر على مر التاريخ ويمكن تصويرها بالاستعانة بتنمية الزراعة وانتشارها.

توافق معظم المصادر حالياً على أن الزراعة بدأت في ما لا يقل عن سبعة مراكز مستقلة في فترة زمنية تتراوح بين ١٠٠٠٠ سنة و٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولا تزال الأبحاث جاريةً ويمكن أن تُكتشف مراكزُ مستقلة أخرى. في كل الأحوال، من الممكن أن تشكل درجة الاستقلال مشكلةً بحد ذاتها. قد يكون الانتشار المحفز تم بين المراكز القريبة نسبياً من قَبيل المكسيك، وجنوب الولايات المتحدة. ونعني بذلك أنه من الممكن نقل معلومة «تدجين» النبات عن طريق النشر، حتى وإن جرى استنبات وتدجين زراعات بشكل مستقل، بالاستناد إلى الجذور البرية المتوافرة. ولكن لا يوجد أي دليل يثبت بأنّ النشر المحفّز قد جرى بالفعل في هذه الحالة. وتبدو إمكانية حصول الانتشار المحفّز بين آسيا وأوروبا وإفريقية والأمريكيتين بعيدة. واستناداً إلى المعلومات الحالية، من الأفضل أن نقول بأن عملياً تدجين النباتات والحيوانات نتجت عن ابتكارات مستقلة في مناطق متباعدة من العالم.

حقيقة واحدة بارزة من الحقائق الخاصة بالبيانات تفيد بأنه على المدى الطويل لوجود البشر على وجه الأرض، كان يجب أن تظهر هذه المراكز المستقلة ضمن مدى زمني ضيق لا يتعدى ستة آلاف عام. قبل أ كثر من ١٠ آلاف سنة خلت، خرج الإنسان Homo sapiens sapiens من إفريقية، واستقر في القارات الرئيسة كافة. ولكن في حال حصول تأهيل النباتات في وقت مبكر، فلا بد أن السجل التاريخي قد أضاعه. في هذا الصدد. لا يعد تأهيل النباتات عمليةً سهلة كما يبدو عليه للوهلة الأولى. فعلى مرِّ آلاف القرون، قطع الناس بعض الأعشاب البرية، وتحكموا بالأعشاب المضرة، وساعدوا في مضاعفة النباتات البرية، أو البذور

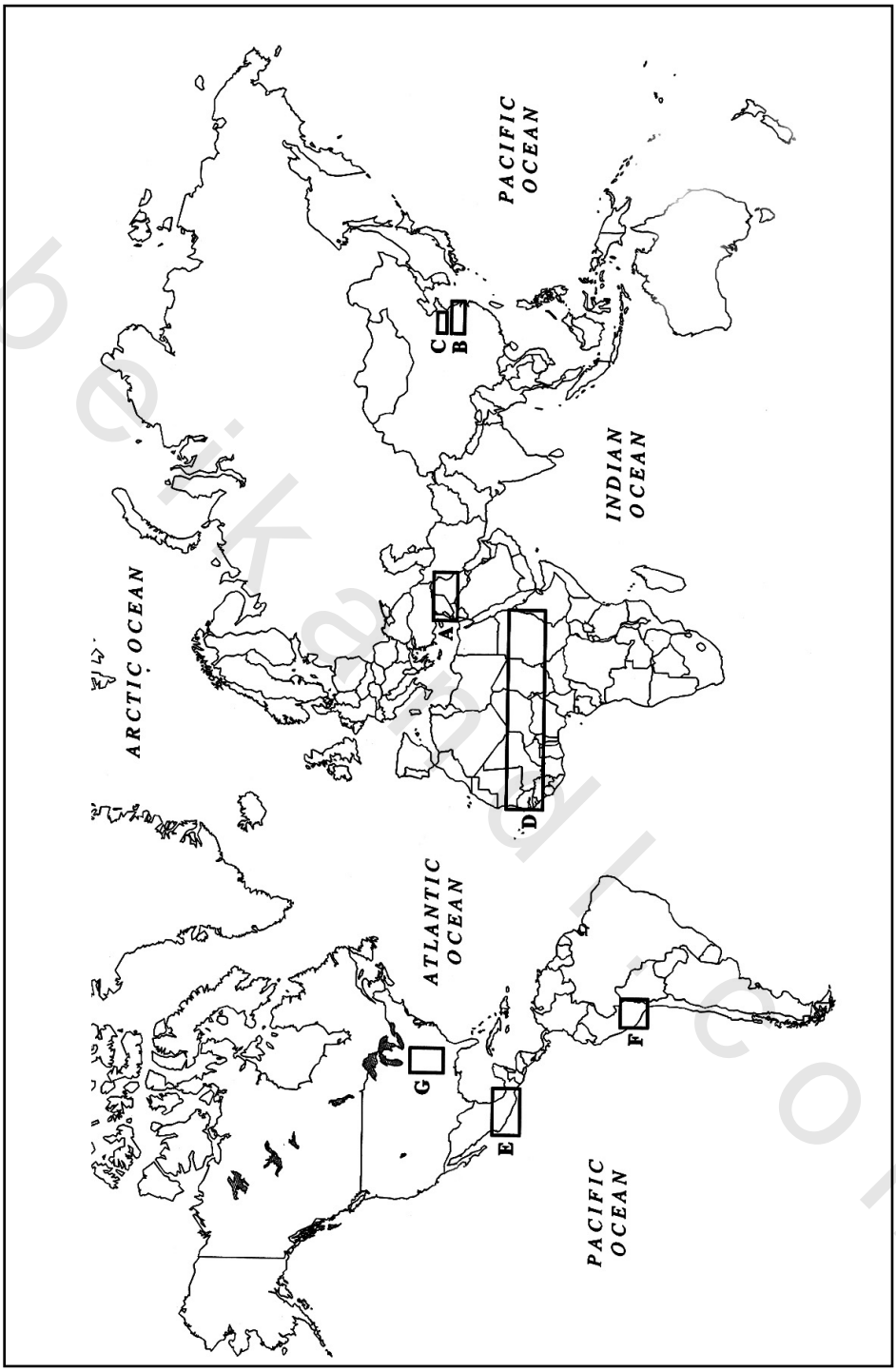
PACIFIC OCEAN
INDIAN OCEAN
ARCTIC OCEAN
ATLANTIC OCEAN
PACIFIC OCEAN
A
B
C
D
E
F
G

المزروعة، ولكن لا يمكن اعتبار هذا الوضع تأهيلاً حقيقياً للنباتات، فلكي تكون النبتة أو الحيوان مؤهلين للاستنبات والتكاثر الموجَّهين بالمعنى التقني للكلمة، ينبغي أن ينتميا إلى نوعية جديدة. أو جنس جديد في أغلب الأحيان، ولا يمكن أن يُعيد نفسه من دون مساعدة البشر.

والذُرةُ مثالٌ مناسب. كانت الذرة البرية الأصلية عشبة تسمى Teosinte في المكسيك، وهي عبارةٌ عن ناتئة لها صف واحد فقط من الحبوب المغلفة كل منها في غطاء قاس. وعندما تنضج الذرة، تتشقق الشوكة فتتناثر البذور بحيث يصبح بالإمكان إنتاج نبتة جديدة كل سنة. وبذور الذرة أثقل وزناً وتحظى بقدر أقل من الحماية، ولا تتناثر بذورها، في أغلب الأحيان، ينتج حقل من الذرة من دون رعاية بضع سويقات في السنة التالية، ولكنّ انعدام العناية البشرية يتسبّب بانقراض النبتة بعد بضع سنوات، وبوجود أعدادٍ وافرةٍ من الأنواع والاستثناءات الجلية، من قبيل القطط والكلاب الوحشية، لا بد أن تتماثل النتيجة بالنسبة للنباتات والحيوانات المدجَّنة عند تركها من دون رعاية.

أكثر التفسيرات شيوعاً لتأخر تدجين النباتات حتى ١٠ آلاف سنة خلت تفيد بأن التغيرات البيولوجية التي أعقبت العصر الجليدي الأخير أنتجت أنواعاً مختلفة من النباتات البرية المؤاتية للتدجين في عدة أرجاء من العالم، ومن المرجح أيضاً أن تكون الكثافة العددية للصيادين اللقّاطين قد أدت إلى ندرة الموارد المتوافرة بحيث حفزت تنمية الزراعة، وتدجين الحيوان.

إنّ تواريخ بدء الزراعة المدونة على الخريطة متأخرة عما هي عليه في الأدبيات. وخلال الثمانينيات من القرن العشرين، شهدت التقنيات التنقيبية والنباتية المعتمدة في الأبحاث الزراعية الأولى تحسناً مذهلاً. ومن الأدوات المستحدثة قياس الطيف الكتلي المسرَّع accelerator mass spectrometry الذي يساعد في تعيين تاريخ الإشعاع الكربوني انطلاقاً من عينةٍ صغيرة جداً من المادة العضوية. تطلبت التقنيات الأولى عينةً كبيرة للغاية بحيث كان من المستحيل القيام بعملية التاريخ انطلاقاً

من بعض بذور، وكان لا بد من إجراء تخصيب بالإشعاع الكربوني radiocarbon dates انطلاقاً من عيِّنات الموادّ العضوية المرتبطة، وهي تقنيةٌ كانت في بعض الأحيان مخيِّبةً للآمال. وفي الثمانينيات من القرن العشرين، أصبح المجهر الإلكتروني المسحي متوافراً لقياس خصائص البذور، من قبيل الاختلافات الصغيرة في أغلفة البذور التي تميز البذرة البرية عن البذرة المدجَّنة في الفترة الزمنية ذاتها.

لا تكاد قائمة النباتات والحيوانات المدجنة المذكورة على الخريطة تتضمن أمثلة عن الاختراع التكراري المحتمل. أي أنه فيما كانت النباتات مدجنة بشكل مستقل عدة مرات، فقد تمَّ تدجينُ كل نوع نباتي أو حيواني مرةً واحدةً فقط، على الأرجح واصطنع كل مركز زراعي لنفسه مجموعته الخاصة من النباتات والحيوانات.

انتشر استخدام هذه الأجناس المدجنة حول العالم من خلال النشر بمبادرة من الأشخاص الذين كانوا يتمكنون من السفر – عن طريق القوافل عبر طريق الحرير، أو بحراً بمساعدة الملاحين البولينيزيين أو الأوروبيين – ولكنّ الفلاحين الذين سنحت لهم فرصة الاستخدام تقبلوا، أو رفضوا جلب خلفاء كولومبوس، على سبيل المثال، الذرة إلى أوروبا، ولكنّ ردة الفعل الأوروبية الأولى تمثلت بالرفض، إلا في حالة استخدامها كعلف ثانوي للحيوانات. اعتمد الأتراك الذرة بوصفها مادةً غذائيةً للبشر بسرعة ملحوظة أدت إلى إطلاق تسمية «الذرة التركية» عليها في عدة لغات أوروبية. ومن غير الضروري أن تشير إلى أنّ أصحاب السفن كانوا أيضاً في وضع يسمح لهم باقتراض المحاصيل حتى من الذين لم يرغبوا في إقراضهم إياها. حمل الهولنديون زراعة البن من إثيوبيا إلى جاوة. أما الأمريكيون فقد أدخلوا الأناناس إلى أمريكا الجنوبية من هاواي. ونقل البريطانيون والهولنديون الكينا البرية من منحدرات الأنديز الشرقية كي تصبح محصولاً زراعياً في سيلان وأندونيسيا. الأمر الذي أثار انزعاج البوليفيين والبيروفيين الذين كانوا يتحكمون في السابق بالمصدر الأول في العالم لهذه النبتة.

وتيرة الانتشار ومجالاته:

تتوقف خطى النشر، بشكل أساسي، على كثافة السكان ووسائل النقل. في حقبة ما قبل الاستزراع، اتسم النشر بالبطء لأنّ الناس كانوا يقيمون على مسافات متباعدة ولا يكادون يقيمون اتصالاً بالغرباء، وتزايد معدَّل سرعة النشر مباشرة عقب ارتفاع الكثافة السكانيّة وتحسُّن وسائل النقل.

وفي العقود القريبة العهد، باشر الباحثون في التاريخ العالمي في اتّباع نزعة تقسيم التاريخ البشري إلى حقَب زمنية من الحِقَب السابقة للزراعة وصولاً إلى ١٠٠٠٠ ق.م وانتشار الزراعة من مراكزها الأصلية، ومن ثمَّ الحقبة الزمنية التي تبدأ حوالي سنة ١٨٠٠ في أوروبا تطرؤ أيضاً. وليس هناك اتفاق على طريقة تقسيم الحياة الزراعية الطويلة الأمد إلى حقب ثانوية، ولكنْ رأتْ بدايةً النور استناداً إلى أعمال مؤرخين طليعيين من أمثال ويليام ماكنيل ومارشال هودجسون. يقوم شكل من أشكال التقسيم إلى حقب على مزيج من الاختراع والنشر. في بعض المراكز الأولى حيث كانت الزراعة تخوّلُ زيادةً في عدد السكان نمت مراكز حضرية، وأدت بالتالي إلى ظهور الحضارات الأولى، وهو المصطلح الذي كان يفيد أصلاً معنى الحياة في المدن. تحوّلت كلٌّ من هذه المراكز الأولى ذات الكثافة السكانية المرتفعة نسبياً والمتصلة فيما بينها إلى مركز منطقة أكبر مساحة تجري فيها اتصالاتٌ متبادلة. وفيما كان السكان وتبادل الاتصال يتم انطلاقاً من المناطق المركزية الأصلية، تزايدت نسبة الاتصال تدريجياً على مراحل إلى أن أصبح تبادل الاتصال، خلال نصف القرن الماضي، شاملاً رخيص الكلفة، ولحظياً تقريباً.

تقترح بعض المصادر استخدام سلسلة من الخطوات باتجاه زيادة الاتصال على مستوى العالم للإشارة إلى التقسيمات الفرعية الرئيسة لحقبة الزراعة. تباعدت الآراء ولكن ظهرت بعض الخطوات جلية واضحة واعترف بها بشكل عام. قبل بدء التاريخ الميلادي بوقتٍ قصير، شكلت سلالة الهان في الصين إمبراطورية في شرق

آسيا دامت، بشكل من الأشكال، حتى القرن العشرين وأقام الإغريق في العصر الهيليني تركيبةً ثقافيةً اقتبست من جذور بلاد ما بين النهرين، ومصر وحوض البحر المتوسط بهدف تأسيس منطقة تواصل تتمحور حول شرق حوض البحر المتوسط. وقبل الحقبة الميلادية بقرن أو ما قاربه، ربطت طريق الحرير عبر آسيا، والملاحة الموسمية عبر المحيط الهندي وجنوب بحر الصين بين المناطق الرئيسة للأراضي الآسيوية الإفريقية الأوروبية. ومع ظهور الإسلام في القرن التاسع الميلادي ربطت مناطق ذات ثقافة واحدة وديانة واحدة أواصر الناس في الأراضي الممتدة من المغرب إلى وسط آسيا. وانبثقت على شكل مجتمع واحد تربطه علاقات مع المجتمعات الآسيوية – الأوروبية الإفريقية الأخرى، فكانت تقترض من بعضهم وتقرض بعضهم الآخر، وتعمل على شبكة للنشر والانتشار الثقافي. بهذه الطريقة انتقل النظام الرقمي المعروف بالأعداد العربية، على سبيل المثال، من الهند إلى أوروبا، وأصبحت عزلة المرأة ممارسةً تطبَّقُ في الأراضي الممتدة من إسبانيا المسيحية حتى الهند الهندوسية. وشاع استخدام البارود بالإضافة إلى اختراعات صينية أخرى في كل أنحاء العالم تقريباً في غضون بضعة قرون.

كذلك فقد أدخلت الثورة البحرية الأوروبية في الفترة المتراوحة بين ١٤٢٥ و ١٥٢٥ الأمريكيتين المنعزلتين سابقاً إلى العالم الذي كان يعرفه الأوروبيون، وفي منتصف القرن الثامن عشر، حلَّت أوروبا محلَّ العالم الإسلامي وأصبحت بالتالي المجتمع المركزي الذي يقيم معه الآخرون الاتصال – في الواقع محور النظام الجديد للاتصالات المتبادلة.

موانع الانتشار

ولكن العلم بابتكار قد يكون نافعاً لا يدفعُ الناس بالضرورة لتقبله. تنتشر الديانات أحياناً بسرعة كبيرة. ولكنها تتواجهُ أحياناً عبر خطٍ حدودي طوال قرون دون حصول أي تغيرات متبادلة جديرة بالذكر. فمع سقوط الإمبراطورية

الرومانية، انقسم حوض البحر المتوسط المتَّحد سابقاً إلى ثلاث مناطق محددة دينياً تتبع الديانة المسيحية بشكليها، والديانة الإسلامية، وظل الانقسام ثابتاً نسبياً طوال قرون.

وقد تتغيّر هذه الحدود الدينية الثابتة على هذا النحو بشكل مفاجئ. ففي بلاد الولوف المعروفة اليوم باسم السنغال، توفي الحاكم الإسلامي الأول المسجَّل تاريخياً في المنطقة في سنة ١٠٤٠م. ظلّ الإسلام الديانة التي اعتنقها التجار والبلاطات الملكية، وزحفت تدريجياً وصولاً إلى القسم الأعظم من الفلاحين، واستمر التوازن الديني ثابتاً لحوالي الألف سنة، ثم، وبشكلٍ مفاجئٍ بين سنتي ١٨٠٠ و ١٩٢٠ تقريباً، أصبح الإسلام الديانة التي تعتنقها الغالبية العظمى من شعوب إفريقيا والسنغال إلى غامبيا وليس بين الولوف فقط.

ونجد امتناعاً عن التبني من هذا القبيل في التكنولوجيا. بيد أن تفسير ذلك يتضمن المزيد من الصعوبة. مع أنه يصعب الاعتماد على تبرير وجود ديانةٍ أفضل من أخرى. فإنّ المُعَدات التقنية تقيسُ الجيِّد والسيئ اعتماداً على قدرتها في أداء مهماتٍ معينة. ومع ذلك، لا يمكن ضمانُ تقبُّل الغير لها. من الأمثلة المعروفة على ذلك رفض الرومان الظاهر لاستخدام الرِّكاب. كانوا على علم بالرِّكاب من خلال اتصالهم بالفرسان الآسيويين في السهول، ولكنهم فضّلوا الاحتفاظ بمركباتهم الحربية وامتطوا الجياد دون الاستعانة بالرِّكاب.

وهناك أمثلةٌ معروفةٌ أخرى على التبادلات التكنولوجية الأحادية الجانب بين الصين والغرب. بشكل عام، كان الغرب يقترض بكثرة من الصين قبل القرن الحالي، خلافاً للصين، التي كانت لا تكاد تقترض شيئاً من الغرب. بحلول القرن الثامن عشر، كانت المعامل في الغرب تنتج تزييفات، متقنة من الحرير الصيني والخزف الصيني، ولكن الصينيين لم يكونوا يصنعون نسخاً عن المراكب الغربية الشراعية التي تُساوي في مجالها خزف الصينيين جودةً.

وما تبنى الصينيون الألف باء، أو الأبجدية المقطعية التي قد تبدو للوهلة الأولى متفوقة على نظام للكتابة قائم على آلافٍ من الإشارات والأدوات. يمكن تفسير هذا الوضع جزئياً بأن الأحرف الصينية كانت تحظى بالتقدير، لأنها كانت جميلةً بقدر ما كانت مفيدة، وكانت تماثل، بشكل وثيق، العديد من أوجُه الثقافة الصينية الأخرى. يحمل كل حرف رسالةً خاصةً به من حيث المفهوم لا من حيث الصوت الذي يُنقل من خلال تجمعات معقدة من الأحرف الأخرى التي تقوم عليها، ولذلك يستطيع أن يحمل مستويات من المعاني والتلميحات والوظائف التي يتعذر أن تقوم بها الألف باء أو الأبجدية المقطعية. تتميّز الحروف الصينية أيضاً بخاصية الشمولية في مناطق واسعة النطاق. وهكذا يمكن للأشخاص الناطقين بلغة غير مفهومة من الطرفين أن يتواصلوا خطياً بما أنّ الأحرف تحمل في طيَّاتها مفهوماً وليس صوتاً. ولكن من خلال العصر الصناعي، شكل الاستخدام المتواصل للأحرف مشكلات جديدة. إن استخدام قاموس صيني أمر في غاية الصعوبة، إذ يكون مرتباً أولاً وفقاً لعدد ضربات الريشة المكوِّنة للحرف، ومن ثم وفقاً لنظام ثابت من الجذور، أو الأشكال الأساسية – التي يفوق عددها المئتين. أما مشكلة وضع الكلمات في قوائم وفقاً لترتيب ثابت فيتعدى إعداد القواميس لبلوغ أشكال عديدة من حفظ السجلات – تخيل دليلاً للهاتف مستنداً إلى عدد الضربات وتعاقب الجذور. تستطيع الحواسيب أن ترتب أبجدياً إلاّ أنها تتعامل مع الأحرف بصعوبة. يكمن حل عدة أنواع الاتصالات في الصين وتايوان ببساطة وبكتابة بضعة أنواعٍ من الأشياء بالإنكليزية يبقى علينا أن نعرف إن كانت كفاءة الحاسوب الأبجدية تلغي الميزة الجمالية للأحرف.

الاقتراض الثقافي المتبادل بين الغرب والعالم:

يُعنى المؤرخون وعلماء الاجتماع الآخرون باكتشاف أنماط عامة من التغير الثقافي بما فيها التقبّل والرفض وإعادة ترجمة الافتراضات الثقافية. وعلى الرغم من عدم وجود فرضية تسمح بتفسير كل هذه الظواهر حتى تاريخنا الحالي، يمكن

الاستعانة ببضعة تعميمات شاملة يبدو أنها مفيدة. أولاً: وفقاً لما ذكرته هذه الدراسات عدة مرات، فقد اتسم الغرب، ابتداءً من العصور الوسطى، باكتساباته العديدة في ميدان التكنولوجيا. وصل البحارون الغربيون إلى آسيا على متن سفن اقترضت تصميماتها جزئياً من آسيا واتبعوا توجيهات العلم الفلكي والجبري والبوصلات المغنطيسية التي تعود أصولها بمزيدٍ من الوضوح إلى آسيا. وقدمت آسيا ابتكارات أيضاً. ولكنها كانت بدورها تستخدم التكنولوجيا المقترضة بأساليب جديدة. تزامن الاقتراض والابتكار. وشكّلا الإشارات المبكرة لتجديد تكنولوجي في الثقافة الغربية التي ازدهرت في العصر الصناعي. ولكن وصولاً حتى القرن العشرين، لم يكترث الغرب ألبتة بالافتراض في بعض الميادين الأخرى. من مثل الديانات غير الغربية. وقد كان التعصّب الديني الخاص وجهاً من مجموعةٍ من الأفكار التي دفعت الأوروبيين والأميركيين إلى بذل المزيد من الجهود لتشجيع الآخرين على تقبُّل المسيحية.

أما بالنسبة للتعميم الثاني، فإنّ معظم الآسيويين، قبل القرن الثامن عشر، لم يبدوا أيَّ اهتمامٍ للتكنولوجيا الغربية، ولكنهم باتوا يقترضون الكثير من التكنولوجيا والثقافة الغربية بالقرن التاسع عشر، وإن كان اقتراضهم هذا انتقائياً. قليلٌ منهم ودّوا لو أصبحوا غربيين. ونادراً ما كان جهد التحديث يعني التزييف البسيط. وأُعجب كثيرون منهم بالتكنولوجيا التي أدت إلى الإنتاجية المرتفعة والاستهلاك العالي الذي شهدوه في الغرب. تقبّل بعضهم ترجمتهم الخاصة للمسيحية، ولكن الغالبية رفضت الرسالة المسيحية التي عرضها عليهم الغرب بإلحاح. كانوا يرغبون بالمكاسب الظاهرة للتكنولوجيا الصناعية، ولكنهم كانوا يودّون أيضاً الاحتفاظ بأُسلوب عيشهم الخاص وبذل القسم الأكبر منهم عنايةً خاصةً للحفاظ على ديانتهم الخاصة مهما كانت.

وقبل بلوغ العصر الصناعي ذروته، اضطرّت المجتمعات غير الغربية أن تأخذ بالاعتبار الغربيين الوافدين إلى سواحل القارات، عارضين عليهم صفقات تجارية

وقادمين بصحبة المبشرين بالديانة المسيحية. ولم تكن الإرساليات النصرانية تشكل تهديداً على وجه الخصوص، بل جاء التهديد من مصدرٍ آخر. ففي أغلب الأحيان، ترافقت فرص التبادل التجاري بتهديد لا يستهان به، إذ باتت القوة العسكرية الغربية نذيرةً بالشؤم بشكل متزايد على مر العقود. وإذا كانت الدولة غير الغربية عاجزةً عن الدفاع عن نفسها، فسوف يتعرض أسلوب حياتها بأسره للتهديد في فترةٍ زمنيةٍ معينة. لكن الدفاع عن النفس كان يتطلب محاكاة بعض ميزات الغرب. وكان التحديث العسكري مثل الإسفين المُقحَم في أغلب الأحيان، إذ كان يطلق سلسلةً من التغيرات في دوائر متنوعة بتنوع المنظمات الاجتماعية والتعليم والحياة السياسية.

ويشكل اليابان وتركيا مثلين تفصيليين اختيرا للدراسة في الفصلين التاليين. ولم يقم انتقاؤهما على الصدفة ولا لأنهما نموذجيان. ولكنهما مثالان متناقضان للتحديث الدفاعي. فقد كانت اليابان أول دولة غير غربية دخلت مجال التصنيع وأحرزت أكبر قدر من النجاح. أما تركيا فقد شهدت تحويلاً واسع النطاق وثورياً باتجاه القوانين الغربية في أبعادٍ شاسعة من الطيف الثقافي. لكن قبل ذلك يجدر بنا أن نلقي نظرة على أمثلةٍ عن استراتيجياتٍ دفاعية في إطارات مغايرة، بعضها ما يزال في عصر ما قبل الصناعة.

مقاومة الإنكا الجديدة:

تشكّل مقاومة الإنكا- الجديدة للحكم الإسباني في البيرو، في القرن السادس عشر، مثلاً، بارزاً أنها وقعت في حقبة زمنية مبكرة من تاريخ الغزو الأوروبي للعالم. وقد كانت عبارةً عن ردة فعل من أعضاء مجتمعٍ هُزموا على أيدي غزاة أجانب ظهرت في العقود الأولى التي أعقبت الهزيمة.

تذكر معظم روايات تاريخ أمريكا اللاتينية قصةً مذهلةً، أدّى دور البطولة فيها بضعة مئاتٍ من الجنود الإسبان الذين زحفوا واحتلوا تاونتينسويو - المعروفة باسم أطلقه عليها الأوروبيون وهو إمبراطورية الإنكا - وأقاموا واحدةً من أولى

الإمبراطوريات الإقليمية الأوروبية في بلاد ما وراء البحار. لقد كان هذا الفوز الأول ناتجاً عن داء الجُدَري وليس عن البراعة العسكرية الأوروبية كما أنّ الأسلحة الحديثة اضطلعت بدورٍ أقلّ أهميةٍ من عنصر المفاجأة الاستراتيجي. لم يكن سكان تاوانتينسويو يعلمون شيئاً عن الإسبان، ولا عن البلاد التي أتوا منها، ولا ما كانوا ينوون القيام به. لقد قدموا مع كتيبةٍ من الخيَّالة ودخلوا بلاداً تنعدم فيها الجياد، وأتوا بالمدافع إلى بلادٍ لا يوجدُ فيها البارود.

في مرحلة مبكرة، قبض الإسبان على رأس الإنكا المتمثل بقائد دولة بيروقراطية معقدة، وتمكنوا لفترة من الزمن أن يحكموا البلاد من خلال إصدار الأوامر باسمه. وهكذا ظهرت حركة المقاومة في فترة متأخرة إلى حد فقدت معها فاعليتها، لأنّ الإسبان كانوا يسيطرون على جهاز الحكومة. ولكنّ قسماً من نبلاء البيرو وتابعيهم لاذوا بالفرار إلى فياكابامبا، وهي منطقة حدودية تقع بين جبال شاهقة وغابة استوائية شرق جبال الأنديز. وفي هذا الموقع، كانوا على مقربة من عاصمة كوسكو السابقة التي كانت خاضعةً آنذاك لحكم الإسبان، ولكن كان من الصعب اختراق معقلهم انطلاقاً من الجبال، إذ كانت ماشوا بيكشو في المنطقة الحدودية. أقام الفارُّون في فيلكابامبا حكومةً مستقلة ظلوا يدافعون عنها من الثلاثينيات من القرن السادس عشر حتى عام ١٥٧٢.

من الأمثلة المبكرة ذات الدلالة على التحديث الدفاعي، ما اختاره هؤلاء من ثقافتهم الخاصة بغية الحفاظ عليه، وما ارتأوا اقتراضه من الإسبان. بادئ ذي بدء، اعتزموا إعادة إقامة البنية البيروقراطية الرئيسة لتاوانتينسويو، على الرغم من أنهم باتوا يحكمون منطقةً أصغر مساحة. وفي الوقت ذاته، اقترضوا من الإسبان أكثر بكثير بالمقارنة مع الشعوب الأخرى الناطقة بلغة الكيشوا الخاضعة لسيطرة الإسبان خلال هذه العقود المبكرة. أدخلت دولة الإنكا الجديدة بسرعة تغييرات تعتمد على التقنيات العسكرية الأوروبية، كما يمكن توقعه، فاكتسبت أسلحة

الأوروبيين ودروعهم وأخذت تربي الخيول الأوروبية. وكان دور هذا التكيّف بالغاً في الأهمية لأنه لم يكن في استطاعتهم الوصول إلى اليد العاملة الضرورية لكتيبة المشاة الممثلة لقوة تاوانتينسويو العسكرية؛ بسبب انخفاض عدد السكان الناتج عن وباء الجدري. ولم يكن الإسبان مضطرين لمواجهة هذه الجيوش، وانفجر الصراع الرئيس، عقب الهزيمة الأولى، بين الكتائب الإسبانية التي تنازعت فيما بينها، ولم يكن الطرف الواحد يزيد على بضع مئات.

أما الميدان الرئيس الآخر، فغير متوقع ألبتة. لقد اعتنقت دولة الإنكا الجديدة ديانة الإسبان، وفي هذا المجال، عمل القادة الإسبان وزعماء الإنكار الجديدة جنباً إلى جنب ساعين لخدمة مصلحتهم الخاصة على الأرجح. أرسل الإسبان المبشرين إلى فيلكابامبا كوسيلة لاختراق المقاومة وضمان تقبّل سلمي للحكم الإسباني. في الوقت ذاته، تقبّلت المقاومة الهندية المبشرين واستخدمتهم لاستمداد المعلومات عن الإسبان، وعن الثقافة الإسبانية، وعن أوروبا، وبهذه الطريقة، تمكنوا من خفض تفوق عنصر المفاجأة المهم الاستراتيجي إلى أدنى مستوى. تكرّر استخدام المبشرين كمصدر للمعلومات في عدة مراحل من المواجهة بين الأوروبيين والعالم غير الغربي – في اليابان ما قبل توكوغاوا، على سبيل المثال – وفي إرساليات اليسوعيين إلى وادي الياكي في المكسيك في القرن السابع عشر، أو في تقبّل المسيحية في بوغندا في التسعينيات من القرن التاسع عشر. في البيرو في منتصف القرن السادس عشر، اعتنق أفراد مقاومة الإنكا الجديدة المسيحية قبل سكان هضبات البيرو عامة. وخلافاً لما حدث في وسط المكسيك، حيث تم التحوّل للديانة الجديدة بسرعة في القرن السادس عشر، يعود تاريخ تقبل المسيحية على نطاق واسع في البيرو إلى القرن السابع عشر، لا بل حتى إلى فترة لاحقة. حدث اعتناق الديانة الجديدة في هذه المنطقة بشكل سريع للغاية داخل مجموعتين هما مجموعة المتعاونين تعاوناً وثيقاً مع الإسبان، ومجموعة من المعارضين لهم في فيلكابامبا.

إضفاء الطابع الغربي على روسيا في عهد بطرس:

بدأت الثقافة الغربية تنتشر في روسيا وأوكرانيا منذ أن اعتنقت أوروبا الشرقية السلافية المسيحية حوالي العام ١٠٠٠م وما بعده. واتسم هذا الالتزام بالهشاشة في بادئ الأمر، وقد كان مرتبطاً بالقسطنطينية والمسيحية الشرقية عوضاً عن الغرب اللاتيني. وتعيّن على هذا الشقاق الكاثوليكي - الأرثوذوكسي الدوام لفترة طويلة في تاريخ أوروبا الشرقية، ولا يزال ظاهراً حتى الآن في النزاع الناشب بن الصرب الأورثوذوكس والكروات الكاثوليك في يوغوسلافيا السابقة.

بعد سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين في منتصف القرن الخامس عشر، برز الأتراك على شكل الخلفاء السياسيين للإمبراطورية البيزنطية، ولكن المسيحية الأورثوذوكسية ظلت تقوم بوظيفتها من مقرها في اسطنبول. أوجُه الشبه عديدة بين سكان موسكو والعثمانيين بما أنهم كانوا يحتلون النواحي الطرفية فيما وراء الحدود البرية للمسيحية الغربية، ولكنهم كانوا يحافظون على علاقات تجارية وسياسية مع الغرب. وابتداءً من مطلع القرن السابع عشر، أصبح لدولة موسكو، بوصفها دولةً مسيحية، جوانب مشتركة مع الغرب، ولكنها ظلت تمثل موقعاً خلفياً عسكرياً بالمقارنة مع كل من أوروبا الغربية أو الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلك، كانت روسيا تتوسّع، انطلاقاً من سنة ١٦٨٠، نحو الشرق والجنوب نزولاً باتجاه وادي الفولغا نحو بحر الخَزَر تماماً، كما بنت بوغندا امبراطوريتها الثانوية، في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، في جوارها مع أن خطراً خارجياً كان يُحْدِقُ بها. أما التهديد الذي سُلّط على روسيا فقد صدر عن الأنظمة العسكرية المتفوقة في بولندا ومن ثم السويد الواقعة على الجانب الغربي، مثلما شعرت بوغندا في أثناء حكم موتيسا بالخطر الذي كان يمثله المصريون في الشمال والسواحيليون من ساحل المحيط الهندي. وهكذا كان نظام عسكري أكثر تطوراً ضرورياً لكي تدافع روسيا عن نفسها ولكي تتوسع رقعة الغرب للتوسع والدفاع عن نفسها. هذه الاعتبارات العسكرية هي

التي وضعها بطرس قيصر روسيا من ١٦٨٢ حتى ١٧٢٥، نصب عينيه حين باشر بتنفيذ سياسة جدِّية تُعرف عادةً بالتطبّع بالطابع الغربي، مع أنها كانت كما صار معروفاً اليوم، سياسة تحديث مخططة أكثر منها محاكاة بسيطة للغرب، جلّ ما كان يثير اهتمام القيصر وتابعيه، هو تعزيز قوة روسيا أكثر منه التشبه بالغرب. وبالاستعانة بالنموذج الغربي للقوة العسكرية، أسس بصرى جيشاً قوياً بما فيه الكفاية للتصدي للسويد وشرع في تحويل روسيا إلى عامل مهم في نظام الدول الأوروبية للمرة الأولى. ولم يكن من السهل حصر التحديث العسكري داخل المجالات العسكرية فحسب، ولذلك وسّع بطرس وتابعوه إطار هذا التحديث إلى حقول أخرى كان بعضها على هامش اهتماماتهم الرئيسة.

سخر الأوروبيون الغربيون من الروس الذين كانوا يحاولون التطبع بالطابع الغربي، مثلما سخروا في بادئ الأمر من اليابان عندما باشرت ببناء بحرية حديثة. حاول بطرس، من بين أمور أخرى، حظر تربية اللحى. ونشر كتاباً من آداب البلاد بهدف دفع السلوكيات الروسية وأسلوب حياة البلاط لتبني العادات الغربية، وأُدخلت بعض التغيرات على الألف باء، وإن لم يكن على اللغة الروسية ذاتها. لكنّ الكلمات المقترضة من اللغات الغربية بدأت تتسلّلُ إلى اللغة الروسية ابتداءً من تلك الفترة. على أنّ برنامج التحديث الذي اعتمده لم يتضمن تعديلاً دينياً أساسياً على غرار ما سبّبه التحديث في فيكابامبا وما سيحدثه من جديد في بوغندا بعد قرنين.

أدى النوع الثاني من التطوّر العرضي للتحديث العسكري إلى تغيير توزيع القوى في المجتمع الروسي على نطاق واسع. وما إن غيّر الجيش الروسي توازن القوى في أوروبا حتى أصبح القيصر هو الأقوى في داخل روسيا، مثلما عزّز دعم الموسكيت والمبشرين قوة بعض الزعماء – العملاء في بوغندا داخل الدولة الغاندية. أما في روسيا الخاضعة لحكم بطرس. فقد فَقَد أعداء القيصر سطوتهم وتجمّع أصدقاؤه

ضمن إعادة ترتيب ظل قائماً حتى بعد انتهاء فترة حكمه. فقد سيطر على بضع الروس شعور دائم بتحكم أوروبا الغربية بهم سواء من الناحية الثقافية أو السياسية.

تحديث حكم القلة المسيطرة في عصر الإمبريالية بوغندا:

واجهت مجتمعات أخرى الخطر الغربي وردّت عليه بشكلٍ من أشكال التحديث الدفاعي. لكن بحلول أواخر القرن التاسع عشر، كانت المجتمعات الغربية قد استفادت من حوالي قرن من التحديث، وزادت تفاوت القوى بين الغرب وغيره أكثر من أي فترة سابقة. لقد ظهرت هذه الهوة الفاصلة بين الطرفين خلال العصر الإمبريالي. وبسبب تسارع وتيرة الغزو الأوروبي، اضطر الزعماء غير الأوروبيين في كافة أصقاع الأرض لمواجهة هذه المشكلة. اختار البعض، على غرار اليابان وتركيا، شكلاً من أشكال التحديث الدفاعي حافظ على جوهر أسلوب عيشهم القديم، وخوَّلهم أيضاً، كما في حال اليابان على تقديم أمارات وبشائر على نجاح اقتصادي.

ونادراً ما كانت الشخصيات الرئيسة في هذه المواجهات من الأفراد. إذ إنّ إنجازات التحديث على الطريقة الغربية التي اضطلع بها بطرس الكبير كانت تبيِّن، على سبيل المثال، جهود مجموعة تحيط بالقيصر أكثر منها جهود بطرس وحده. ولم تكن الاستجابات على حركة التحديث راسخة على نطاقٍ واسعٍ في هذه المجتمعات. كبح التعلم المحدود والتدفق المحدود للمعلومات داخل كافة المجتمعات غير الغربية تقريباً الاستجابات المحتملة لأعضاء النخبة، وحتى لمجموعة معينة داخل النخبة ممن ظهروا أحياناً على شكل أقلية جديدة تتحكم بالبلاد وتفرض التحديث.

لقد سبق أن اطلعنا على المراحل المبكرة للتحديث الدفاعي في بوغندا. كاباكا موتيسا كان الشخصية الأبرز والأولى خلال الثورة المسيحية التي وقعت في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر. فقد ساعد في إدخال المبشرين إلى مجتمع يعاني من مواجهات مع دخلاء – لم يكونوا في بادئ الأمر من الأوروبيين بل التجار السواحليين الوافدين من الساحل الشرقي والإمبراطورية المصرية

الثانوية في الشمال. وأكثر ما لفت انتباه القيادة الغاندية في الثقافة الغربية في تلك المرحلة السلاح والدين. كانت بالتحديد هي المظاهر ذاتها من الثقافة الغربية التي جذبت اهتمام المقاومة في فيلكابامبا منذ حوالي ثلاثة قرون خلت. إلا أن الغاندا كانوا قادرين على استغلال الأسلحة الغربية والديانة الغربية لتوجيه التأثير الأوروبي والحد منه، وفي هذه الحالة لتأجيل الاستسلام دون القدرة على إلغائه كلياً.

حتى في أثناء حكم موتيسا، غزَّزت التغييرات العسكرية منصب موتيسا على حساب مجموعات أخرى من النخبة. وعقب موت موتيسا، انتقلت السلطة من حامل لقب الكاباكا إلى مجموعة من العملاء - الزعماء الذين استغلوا منصبهم القيادي العسكري والديانات الخارجية، أي المسيحية والإسلام، لدفع مصالحهم الخاصة نحو الأمام.

أعقب هذا الوضع عقدٌ من الارتباك والتشوش جرت خلاله عملية ضم بريطانية رسمية، ولكن خلت من إقامة عقد من الارتباك والتشوش جرت خلاله عملية ضم بريطانية رسمية ولكن خلت من إقامة إدارة بريطانية. قام العملاء - الزعماء بخلع الكاباكا موانغا من منصبه، بمساعدةٍ من البريطانيين، ونشروا هيمنتهم السياسية الخاصة على مجتمع الغاندا، وما جاءت كل الأخطاء الخارجية من أوروبا. فقد أودى طاعون الماشية الوبائي من جنوب غرب آسيا بحياة معظم الماشية، كما تفشّى وباء مرض النعاس المشؤوم في الأجزاء المجاورة من محمية أوغندا، علماً بأنها لم تبلغ قدراً كبيراً من الخطورة في بوغندا ذاتها.

انتظرت بريطانيا إلى ما بعد سنة ١٨٩٩ لإقامة إدارة فعلية في بوغندا أخذت تمتد وتتوسع في فترةٍ لاحقةٍ تدريجياً حتى شملت ما تبقَّى من الحماية. وبحلول تلك الفترة، وجد الحاكم بأن العملاء - الزعماء المسيحيين الأساسيين كانوا يتحكَّمون بمعظم البلاد ويحظون بحماية مستشاريهم من المبشرين، وبالتالي باتت حكومات الأقليات الجديدة قادرةً على التفاوض من مركز قوة.

وجاءت النتيجة على شكل معاهدة رسمية يُطلق عليها تسمية اتفاقية أوغندا لسنة ١٩٠٠، وقد كانت عبارةً عن وثيقة وحيدة للاحتلال البريطاني لإفريقية الاستوائية. وضع هذا الاتفاق الرسمي المبرم بين الحاكم البريطاني ومجموعة من العملاء -الزعماء البارزين- الشروط اللازمة لإقامة الحكومة المستقبلية في بوغندا. كانت مصالح حكومة الأقليات المؤيدة للتحديد وسلوكها المسؤول الأكبر عن فرض توازن القوى الجديد. ولكنّ التفاهم بين العملاء - الزعماء البارزين - والبريطانيين كان أوسع نطاقاً من الوثيقة الرسمية. في الوقت المناسب. عمل بعض الغاندا ومعظمهم من طبقة العملاء - الزعماء، بالنيابة عن الإدارة الحكومية في ترسيخ الحكم البريطاني في باقي أجزاء المحمية. ويطلق على هذه العملية- في بعض الأحيان- تسمية إمبريالية الغاندا الثانوية، وقد اعتقد سكان محمية أوغندا من غير الغاندا -في أغلب الأحيان- بأنه حكم للغاندا مشوب بتواطؤ بريطاني.

أكثر ما يبرز في معاهدة أوغندا برنامجها الخاص بالتحديث السياسي - لإنجازاته وقيوده. فهو يحافظ على سيادة مملكة بوغندا، ومنصب الكاباكا كان داود شاو -وهو الكاباكا في تلك الفترة- قاصراً؛ ولذلك كان من المفروض أن يستلم زمام السلطة الفعلية، في ظل الحكم البريطاني، ثلاثة زعماء يمثلون الفرق الدينية الأقوى بين العملاء - الزعماء.

وبالإضافة إلى الحفاظ على منصب الكاباكا، ضمنت المعاهدة السلطة السياسية المستقبلية من خلال تأسيس مجلس تمثيلي للزعماء يُعرف باسم لوكييكو، كما أنها أمّنت حماية مصالحهم الاقتصادية من خلال القضاء على كل النظام التقليدي لملكية الأراضي قضاءً تاماً، ووزعت الأراضي الخصبة في المملكة بين العملاء - الزعماء الأساسيين على شكل ملكية تتطلب بدلاً مادياً بسيطاً، مع مراعاة تمثيل الفرق الدينية الثلاثة كافة - البروتستانتية والكاثوليكية والمسلمة، وكانت حصة الأسد من نصيب أبولو كاغوا، الزعيم الأهم للعصبة البروتستانتية.

جاءت معاهدة أوغندا التي تضمنت هذه الثورة في ملكية الأراضي. بمثابة تقليد للتسوية الدائمة في البنغال، فقد أدت إلى ظهور طبقة من المُلاك الشبيهين بعض الشيء بمناظريهم في بريطانيا العظمى، ولكنها كانت مختلفةً تمام الاختلاف عنها في بوغندا التقليدية، وأقل شبهاً بعد بالإصلاحات التي أدخلت على الأراضي ونفذت في مناطق الاستيطان الأوروبي، من قبيل الانتقاء الأسترالي أو الأميركي. وكرّمت التوجهات البريطانية المتعلقة بالحكومة التمثيلية من خلال إقامة مجلس ولكن لم يُنتخب اللوكيكو. إذ كان هذا المجلس عبارة عن مجلس للوردات الغاندا تأسس في فترة زمنية كانت الحكومة البريطانية على وشك تخفيف نفوذ اللوردات في بريطانيا بالذات. ولا شك بأنّ الاتفاقية كانت مبتكرة ولم يكمن ابتكارها هذا في الاقتباس عن الغرب، بل في الاعتراف بالتحوّلات الثورية في السلطة السياسية التي كانت تطبّق داخل مجتمع الغاندا في العقود الأخيرة وتنظيمها وفقاً لشروط الغرب.

لا ينبغي النظر إلى اتفاقية أوغندا باعتبارها تشجع إقامة حكومة تمثيلية مع إمكانية زيادة الحركة الاجتماعية، أو إضفاء الطابع الديمقراطي على مجتمع الغاندا، كما لا ينبغي أن يُفهم من الملكية الخاصة على أنها توجّه نحو الزراعة الرأسمالية على الطراز البريطاني. اقترضت حكومة الأقلية من الغرب ما اعتقدت أنه ضروري لمصالحهم الخاصة، ولكن دون الذهاب إلى أنّ هذه الإجراءات تتضمن إقامة نمط حديث أو غربي للمجتمع.

١٩٧٩. جتى بعد سقوط عيدي أمين.. عجزت مجموعة الغاندا بأسرها والمنحدرين من سلالة العملاء – الزعماء من استرجاع النفوذ الذين كانوا يتمتعون به في ظل الحكم البريطاني. وسقط الدفع نحو التحديث في أيدٍ أخرى وسلك اتجاهات أخرى.

الملكيَّات التحديثية: هاواي وإيميرينا وسيام هاواي:

بدأ كاميهاميها (المتوفي سنة ١٨١٩) حياته المهنية شخصيةً سياسيةً ثانويةً في جزيرة هاواي. وشرع في حوالي سنة ١٧٩٠ في غزو البلاد المجاورة، ليس فقط على أرض الجزيرة الواسعة بل تعداها إلى أماكن أخرى من سلسلة جزر هاواي التي كان يسيطر عليها بحلول سنة ١٧٩٥. أما ما جعله يحرز هذا النجاح، فهو الإدراك بأنّ الأسلحة الأوروبية توفر القوة والنفوذ لغير الأوروبيين أيضاً. شرع بابتياع بنادق الموسكيت والمدفعية الخفيفة، وحوَّر بعضها كي تصبح قابلةً للاستخدام على الزوارق المزدوجة البولينيزية.

اكتسب كاميهاميها، بفضل نجاحه العسكري، احترام زواره الأوروبيين، ولكنّ سكان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية كانوا ينظرون، عامةً، لهاواي نظرتهم لموسكو في السابق، على أنها موقع طريق بربري، سعت مملكة هاواي الجديدة لإضفاء الشكل الغربي على المظاهر الخارجية، بالأسلوب ذاته تقريباً الذي اعتمده بطرس الأكبر في روسيا قبل قرن ونصف القرن، لعبت المظاهر الخارجية دوراً مهماً في اكتساب الاحترام الضروري لاعتراف القوى الغربية الدبلوماسي. بدأ المبشرون يفدون من الأميركيتين وأوروبا في العشرينيات من القرن التاسع عشر. وقد ساعدت مشورتهم الملكيات في إقامة إدارة سياسية على الطراز الغربي. وهو ما كان ضرورياً لإقناع القوى الغربية بأنّ المَلَكية قادرةٌ على تدبُّر شؤون الجزر. أما ما فاق ما سبق أهميةً فقد كان إقامة جهاز حكومي قادر فعلياً على حكم البلاد. تأسست هذه الإدارة خلال الولاية الطويلة لكاميهاميها الثالث (١٨٢٤ حتى ١٨٥٤). وواجهت هاواي عدة عمليات ضم هددت بها إحدى القوى، ولكنها صمدت في وجهها من خلال تحديث الإدارة الحكومية من جهة، وكذلك من خلال التنافسات الناشبة بين القوى الغربية، ما ساعد في ضمان مستوى معين من الدعم في مواجهة ما بدا باعتباره تهديداً كبيراً في أي وقتٍ من الأوقات.

في مطلع القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا وفرنسا المتنافسين الرئيسين على النفوذ في الجزر، ولكنّ الاهتمام تزايد مع نمو صيد الحيتان في أمريكا الجنوبية. وبعد أن ضمت الولايات المتحدة كاليفورنيا في سنة ١٨٤٨، أصبحت هاواي المحطة المنطقية التي تتوقف عندها الرحلات الساحلية. تحسّنت التجارة وتزايد الاتصال مع كاليفورنيا، وواكبهما تعاظم التدخل الأميركي في شؤون المملكة.

في هذه الأثناء، أدخلت أحداث خارجية تغييرات رهيبة في ديموغرافية هاواي ومجتمعها. سببت الأمراض الغربية الأوبئة الكاسحة وانخفاض عدد السكان ذاتهما اللذين ضربا الأميركيتين في السابق. وفي مناطق أخرى، كان نمو الاقتصاد العالمي ونهاية تجارة العبيد في الأطلسي تدفعان «مركب المزارع» خارج حوض الأطلسي. عادت المزارع للظهور بأشكال مختلفة في مناطق متناثرة، مثل جزر موريشيوس وزنجبار في المحيط الهندي. أما في المحيط الهادي، فقد ظهرت تلك المركَّبات في كوينزلان، وفيجي، وبيرو، وهاواي وأماكن أخرى، في كل هذه الأماكن، تطلبت زراعة قصب السكر يداً عاملةً فاقت ما توفَّر محلياً، وبالتالي استوردت اليد العاملة من بلاد ما وراء البحار. وفي القرن العشرين، لم يعد العمّال عبيداً بل أصبحوا مأجورين لفترةٍ محدودةٍ من الزمن مكرَهين على تقبُّل هذا الوضع بسبب الفقر الذي كانت تعاني منه أوطانهم. عاد بعض العمال إلى بلادهم عقب انتهاء استخدامهم لأجل محدود. ولكنّ العديد بقوا، وبالتالي بدأ توازن سكان هاواي يتغير، أصبح أهالي هاواي الأصليون يشكلون أقلية ضمن مجموعة من السكان المنحدرين إلى حد كبير من أصل ياباني وصيني ومهاجرين فيليبين ومهاجرين برتغاليين من جزء المحيط الأطلسي بالإضافة إلى منحدرين من المبشرين ومديري المزارع والتجار القادمين من الولايات المتحدة وأوربا.

وبحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، كان سكان هاواي الأصليون يسيطرون على السلطة السياسية في ظل ملكية دستورية، ولكنّ النفوذ الثقافي والاقتصادي

الذي تمتع به الغربيون تزايد أهمية. في ظل تأثير الإرساليات التبشيرية، تغيرت معالم ثقافة الطبقة العليا في هاواي بشكل جذري. ويبيّن قصر إيولاني، وهو القصر الملكي الذي بوشر بناؤه في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، الطراز المعماري الذي انتقته ملكية هاواي، ويظهر في الصورة عَلَم هاواي الذي يجمع عناصر من الرموز الوطنية البريطانية والأمريكية. وهنا لا يُظهر الطراز المعماري تبايناً شديداً مع ما اختاره التاج البريطاني للإشارة رمزياً إلى نفوذه في دلهي الإمبريالية في تلك الفترة الزمنية ذاتها. وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر، أصبح ملك هاواي المدعو كالاكاوا أشبه بالرحّالة العالمي بما أنه كان يحظى باستقبال يليق بملك يعترف به المجتمع الدولي اعترافاً كاملاً في أثناء زياراته الملكية لكلٍ من اليابان وبريطانيا والولايات المتحدة من بين دول أخرى .

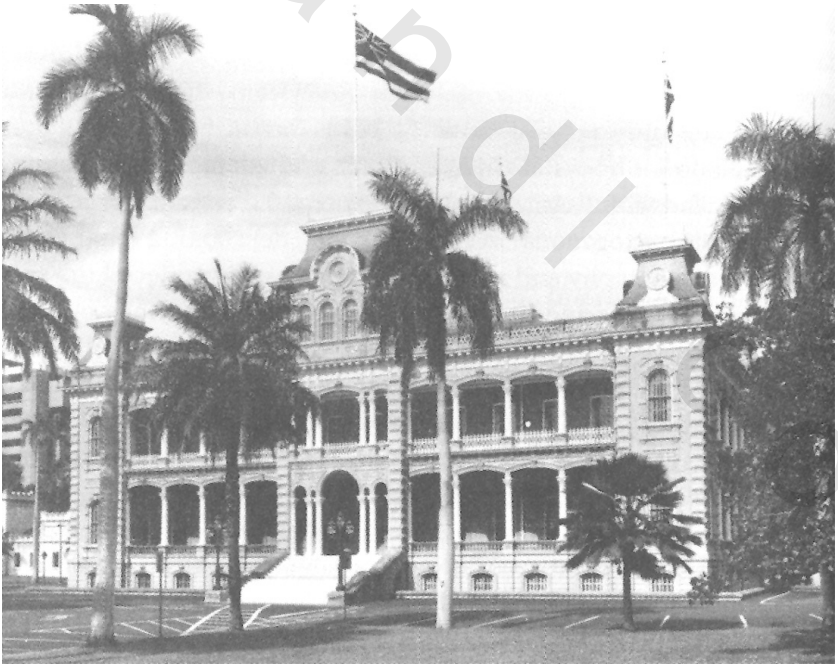

– قصر إيولاني في هنلولو –

خلال التسعينيات من القرن التاسع عشر، أشارت سلسلة من الانقلابات والانقلابات المضادة إلى تزايد النفوذ الخارجي في حياة هاواي السياسية، بعضها متأتٍ من أفراد خارجيين، وبعضها الآخر من حكومات أجنبية، وفي نهاية المطاف، في سنة ١٨٩٨، وعقب مناورة معقدة للقوى السياسية المحلية والدولية، أعلنت الولايات المتحدة رسمياً ضم هاواي إليها على أنها منطقة لها وضعها مماثل لما تتمتع به الأراضي الداخلية في الولايات المتحدة مثل إريزونا أو نيومكسيكو أو ألاسكا، هذا الوضع فتح المجال أمام إمكانية الحصول على وضع الولاية دون الوعد بها. وبعد بضعة أشهر، عندما ضمت الولايات المتحدة بورتوريكو والفيليبين لها، لم تكن تعتبرها أراضي بل ممتلكات مستقلة فحسب. حصلت الفيليبين على استقلالها حتى قبل أن تصبح هاواي ولايةً في سنة ١٩٥٩، ولم يقرر بعد ما إذا كانت بورتوريكو ستتحول إلى ولاية.

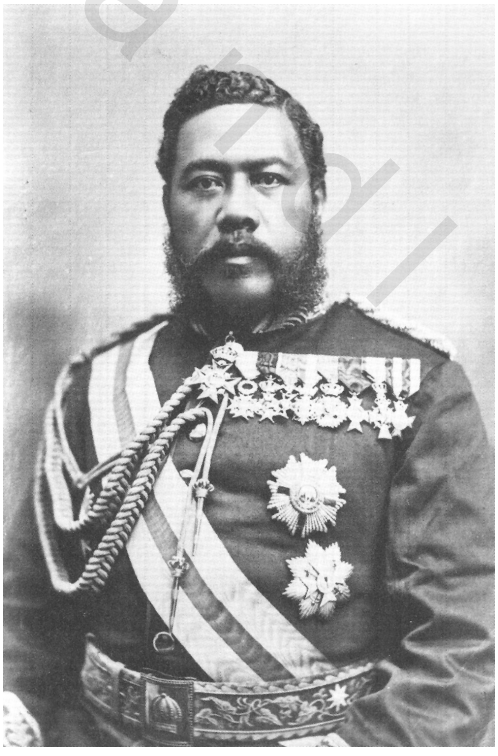

- ملك هاواي المسمى كالاكاو -

شكل تاريخ المَلَكية في هاويا حالةً واضحةً للتحديث الدفاعي. أما معرفة إن كان الدفاع قد أحرز نجاحاً أو أخفق فذلك منوط بالآراء المختلفة للأفراد، من وجهة النظر المادية، فقد دخلت هاواي إلى العالم المتقدم بحلول نهاية القرن العشرين. وقد ظهر جلياً أيضاً بأنّ ثقافة الجزر البولينيزية كما كانت عليه في التسعينيات من القرن الثامن عشر، تغيرت تغيراً جذرياً بحيث تشوَّهت معالُمها بعد أن غشيها التنوع الثقافي الغني الذي يميز هاواي الحالية.

إيميرينا:

تمثل مملكة إيميرينا في مدغشقر جهداً مماثلاً من التحديث الدفاعي، ولكنه لم يحرز النجاح الذي أحرزته هاواي على الرغم من تماثل توقيتها وتأثيرها المبشرين فيهما، وضم الغرب لها في التسعينيات من القرن التاسع عشر، بدأت المراكب الأوروبية ترسو على سواحل مالاغاسي منذ مطلع القرن السادس عشر، وقد سيطر الأوروبيون، بين الفينة والفينة، على بعض المواقع الساحلية وحصّنوها، ولكنْ لم يُجرِ السهل المركزي المكتظّ سوى القليل من الاتصالات مع الأوروبيين أو مع الساحل حتى القرن التاسع عشر، تأسست المملكة في الهضبات المركزية على يد أندريانا بونيميرينا (الذي حكم من حوالي ١٧٨٣ حتى ١٨١٠) وقد كان حاكماً محلياً لمنطقةٍ صغيرةٍ على مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً من العاصمة الأخيرة أي أنتاناناريفو. وقد شرع هذا الحاكم بتوحيد أراضي شعب الميرينو في السهل المركزي، ومن ثمَّ وسَّع رقعة نفوذه من خلال غزو الدولة المجاورة إلى أن تمكن من المطالبة بالسيطرة على معظم أجزاء الجزيرة، وعلى غرار كاميهاميها في هاواي، أسس إمبراطوريةً ثانويةً تقوم، على الأقل جزئياً، على بنادق المُسكيت التي حصلوا عليها من تجار العبيد الأوروبيين، بدأ المبشرون يفدون في العشرينيات من القرن التاسع عشر، فدوّنوا اللغة المالاغاسية، وعلّموا السكان القراءة والكتابة مثلما فعلوا في هاواي. بالفوز المحرز،

– مانجا كامياوانا، القصر الملكي، في أنتاناناريفو –

فقد أحرز المبشرون نجاحاً مع شرائح معينة من الطبقات المالاغاسية العليا، ولكنّ الديانة التقليدية ظلت راسخةً في قلوب الجماهير وقسم من النبلاء أيضاً. وعلى الرغم من تتالي الحكام الذين بدا بعض منهم من مناصري التحديث فيما أطلق المبشرون على بعضهم الآخر تسمية رجعيين، فقد شعر المبشرون بالفخر والاعتزاز

فقد اعتنقت المملكة الديانة المسيحية رسمياً بعد سنة ١٨٦٩. تبنى البلاد الأزياء الأوروبية والطراز المعماري الفيكتوري، أما القصر الملكي المعروف باسم مانجاكاميادانا في أنتاناناريفو، بعدما أعيد بناؤه في السبعينيات من القرن التاسع عشر، فقد شكل النسخة المالاغاسية لقصر إيولاني الذي شيَّد في هونولولو بعد عقد من الزمن (الصورة ٥). حصل الجيش المالاغاسي على أسلحة حديثة، تشتمل فيما تشتمل، على رشاشات ومدفعية خفيفة، كما أُلزم الجنود بارتداء موحّد وتدربوا على أيدي ضباط أوروبيين، وهكذا فقد كان ذلك، سطحياً على الأقل، من أروع الأمثلة على التحديث العسكري في المنطقة الإفريقية.

ولكن تحت هذه الرموز السطحية والاعتناق المعلن للمسيحية، لم تكن هذه التغييرات التي أدخلت على إيميرينا على مدى القرن التاسع عشر لتؤمن الدفاع المضمون على شاكلة النموذج الياباني أو الهاواي. تمتّع حكام ميرينا بإمكانية جمع مداخيل فعلية واستهلكوا سلعاً غربية الطراز، ولكنّ موقفهم كان متأثراً بالتأييد الكبير في العمالة القسرية بالإضافة إلى الاستعباد المعلن. فلم يخففوا فقط في إدخال المزيد من التحديث بعد اعتناق المسيحية والأزياء الأوروبية الظاهرة خارجياً، بل أخفقوا أيضاً في بناء شكل من أشكال مجتمع وإدارة حكومية تديم نفوذهم الخاص، لقد كانوا يفتقرون إلى الإدارة الحديثة التي سمحت لملكة هاواي بالحكم بقدر من الفاعلية، ولكن ما هو أهم بعد يكمن في إخفاقهم في تحقيق دعم شعبي أو تحمُّلٍ شعبي.

بحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، شهدت إيميرينا مواجهةً وضعتها أمام إحدى القوى الأوروبية، انتصرت الإمبراطورية الأثيوبية في معركة حاسمة ضد إيطاليا في عدوة في سنة ١٨٩٦ واستمرت لأربعة عقود لاحقة. وقبلت حكومة أقلية الغاندا بتسوية اتفاقية أوغندا. وعندما هددت فرنسا في سنة ١٨٩٥، بغزو إيميرينا لإجبار المملكة على قبول حماية فرنسا، قررت حكومة أقلية الميرينا أن تحاربها. أطلق الفرنسيون حملة رئيسة كانت أكبر حملة استطاعوا إعدادها في عملية غزو

إفريقيا الاستوائية ولكنها عانت من سوء إدارة أوشكت على القضاء عليها ومن خسارات فادحة سببتّها الأمراض.

مع ذلك، تمكن جزءٌ صغيرٌ من الناجين من القوة الفرنسية من التقدم باتجاه أنتاناناريفو، واكتفى جيش إيميرينا المحدَّث بمقاومة مقاومةً رمزية، فانهارت سلطةُ الملك في البلاد. وانفجرت ثوراتٌ متزامنة في مناطق مختلفة لأسباب متنوعة، بعضها على شكل معارضة عرقية لحكم إيميرينا، وبعضها مناوئ للمسيحية، وغيرها لمجرد النهب والسلب. وعندما وصل ما تبقى من القوة الفرنسية إلى العاصمة، أجبر قائدها المملكة على قبول الحماية الفرنسية، ولكن ملكية إيميرينا سلَّمت سلطة لم تعد في حوزتها. وسرعان ما تخلت فرنسا عن فكرة الحماية وضمت مدغشقر على أنها مستعمرة فرنسية، لقد كان احتلالها الفعلي للجزيرة عمليةً تدريجية استمرت على مدار السنوات الثماني التالية إذ إنها كانت مضطرةً لتشكيل بنية حكومية جديدة تحل محل البنية التي انهارت.

سيام:

تمثل سيام على العكس مثالاً لملكية مطبِّقة للتحديث أحرزت نجاحاً باهراً في إدخال إصلاحات على الإدارة الحكومية، والمؤسسة العسكرية خولتها التنصل من الغزو الأوروبي. كما تواصل العمل في تغيير بنية الحكومة، والمجتمع، وأصبحت على غرار تايلاند من ضمن المجموعة الناجحة للدول التي دخلت حديثاً في عهد الصناعة في أطراف شرق آسيا، وينحدر الملوك الحاليون لتايلاند مباشرةً من الملوك التحديثيين الذين بدؤوا العمل في هذا المشروع في منتصف القرن التاسع عشر.

كانت سيام جزءاً من مجموعة الإمبراطوريات البرية في جنوب شرق آسيا المتمركزة في أودية الأنهار، وتضم هذه المجموعة كلاً من بورما وكامبوديا وفيتنام. وقد تفاوت إطارها الإقليمي بما أن كلاً منها كان يبرز في فترة من الفترات لترسيخ مطالباته بسائر حوض النهر وأطرافه الهضبية. وفي سنة ١٧٦٧، استولى جيش

بورمي على عاصمة سيام القديمة في أيوديا ثم أقامت سلالة جديدة عاصمتها في بانكوك وشرعت – ابتداءً من سنة ١٧٦٧ – بإعادة بناء سلالة سيامية. في منتصف القرن التاسع عشر، شعر الملك مونغكوت بالتهديد الذي كانت تشكله أوروبا المطبقة للتحديث ووضع سيام على درب التحديث العسكري، ممهِّداً الطريق لابنه شولالونغكورن (الذي حكم بين ١٨٧٣ و١٩١٠) كي يتغلب على الأزمة ذاتها التي عايشتها هاواي وإيميرينا في العقد الأخير من القرن وتهديد الغرب بضمّها لأراضيه. يدين الشعب التايلاندي اليوم لشولالونغكورن بتأسيس المجتمع التلايلاندي الحديث .

تطلب إنجاز التحديث بعض الحظ مصحوباً بقدرٍ من النبوغ والتخطيط المتقن لشريحة كاملة من الطبقة الحاكمة في سيام. وكانت الجغرافيا عنصراً مؤاتياً وقر لسيام فرصة التلاعب بالتنافس القائم بين الفرنسيين الذين احتلوا أجزاء من الهند الصينية في الشرق، وبين البريطانيين في الملايو بالجنوب، وبورما في الغرب. أما النجاح الدبلوماسي فما كان ليتحقق دون دفع ثمنه على شكل تنازلات عن الأراضي. أُجبرت سيام على التنازل لفرنسا عن مقاطعات أصبحت اليوم تشكل لاوس. ولبريطانيا عن أربع ولايات الملايو الأقصى شمالاً.

استند النجاح الذي حققه شولالونغكورن أيضاً على الإنجاز السياسي المتمثل بحشد مجموعة من الشباب حول برنامجه. إن هؤلاء الشباب ومن بينهم إخوته السبعة والعشرون، أساساً إلى طبقة النخبة القديمة، كانوا متعلمين وعلى دراية بالعالم الغربي على غراره، وتمكن شولالونغكورن، ابتداءً من منتصف الثمانينيات من القرن التاسع عشر، أن يؤسس تدريجياً إدارةً حكوميةً على الطراز الغربي، على المستويين المركزي والإقليمي، مستعيناً بالنماذج البريطانية في بورما، والهند ووضعها قيد التنفيذ معتمداً على مركزه الملكي لإقامة نظام إداري مماثل لما أقامه المستقرون في ولايات الملايو باسم السلاطين.

– الملك شولالو نغكورن ملك سيام في اللباس الرسمي –

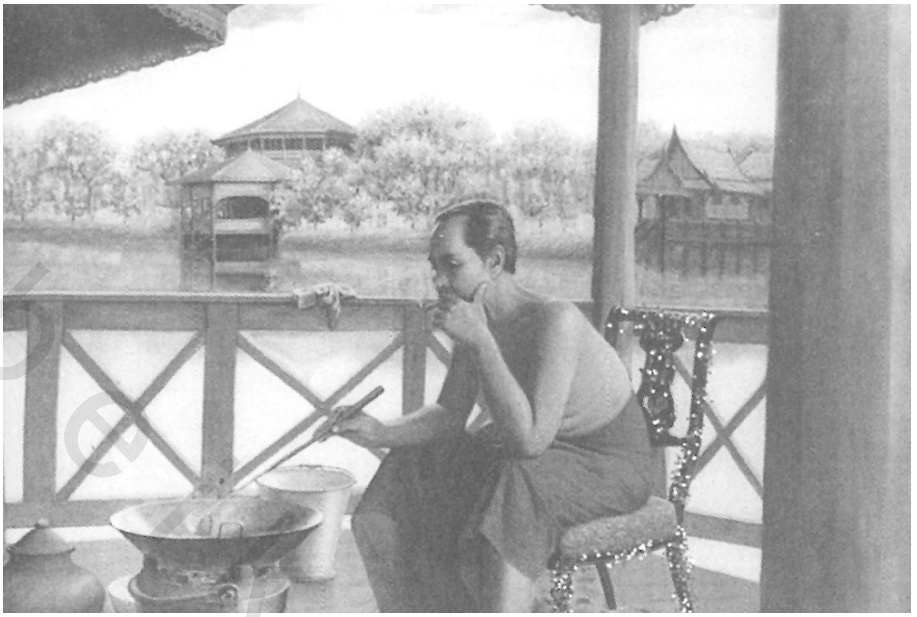

– الملك شولالو نغكورن في اللباس السيامي –

وانبنت إنجازات شولالونغكورن على أساس أن القوى الدفاعية الفاعلة تتطلب أكثر من مجرد أسلحة جديدة. إنَّها تستلزم نفوذاً فاعلاً كي تفرض الضرائب وتحكم البلاد. والأكثر من ذلك فإنها تحتاج لنظامٍ للتعليم العام، أي ما يمكن تسميته بشكلٍ عام تعديلاً عميق الجذور لبعض مظاهر الحياة السياسية في سيام من دون التدخل في الديانة البوذية التايلاندية التقليدية وجذورها الثقافية. كان لا بد أن تحمل هذه التغييرات في طياتها بعض مظاهر التطبع بالطابع الغربي في مسائل من قبيل اللباس والعمارة، وهكذا صمَّم مهندس معماري بريطاني قاعةً جديدةً للحفلات، أو شاكري ماهبراساد، على الطراز الإيطالي، في القصر الملكي، انتهى بناؤها في سنة ١٨٨٢ – علماً بأن الملوك اللاحقين تابعوا المنحى نفسه في إضافة بعض الأبراج السيامية الطراز للمبنى المنتهي (الصورة ٨). هكذا انضم شولالونغكورن لقافلة الملوك المجددين باتباع الأنماط الأوروبية في العمارة السائدة في تلك الفترة، وإن شابها المزيد من لمسات اقتبست من التقاليد المحلية التي وجدت في قصر إيولاني أو في قصر أنتاناناريفو.

– شاكري ماهبراساد، القصر الكبير، بانكوك (تصوير المؤلف) –

في كل هذه الأمثلة، لم يكن الخيار قائماً بين التجديد أو الاحتفاظ بثقافة البلاد على حالها. ظهر القرار البارز بين مجموعةٍ من الخيارات احتلّ فيها خيار الأسلحة الحديثة والتنظيم العسكري المكانة الأبرز للدفاع عن النفس. لم تكن الأسلحة كافية على الدوام، كما يبينه مثال إيميرينا، قد يكون اقتراضٌ آخرُ من الغرب يهدف – على سبيل المثال – لإقامة إدارة حكومية فاعلة على مستوى أكبر من الأهمية. ويعقب على ذلك مجموعة، قد تكون على الأرجح رمزية، تتضمن أنماطاً من الألبسة وعمارة الآثار، كانت تبدو في أكثر الأحيان إشارة مهمة على التحديث، ولكن يكتنف إثبات أهميتها، عن بعد، صعوبة جمة. كثير من الخيارات كانت مطروحة، وتبرز الخيارات التي قدمتها حكومات الأقليات غير الغربية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من خلال التجربة التي خاضتها اليابان والواردة في الفصل التالي.

obeikandl.com

٩

اليابان في عهد الميجي - مثال على التحديث الثوري

اليابان هي أول أمة غير غربية أحرزت النجاح الأكبر في تحقيق الإنتاجية والاستهلاك العاليين الذين يحققهما الغرب. اعتاد العديد من المؤرخين على اعتبار الثورة الصناعية إنجازاً مقتصراً على الغرب واعتبار النجاح الذي حققته اليابان في مجال الصناعة مجرد اقتراض وتقليد بحت لما ابتكره الغرب، أما المركز المقارن الذي تحتله أوروبا في تاريخ العالم في القرن التاسع عشر فلم يعد يبدو على المستوى ذاته من الفرادة وفقاً لما اعتقده المؤرخون منذ حوالي بضعة عقود خلت. أثبت مؤرخو اليابان مؤخراً أن قسماً كبيراً من القاعدة الاجتماعية، والاقتصادية لإدخال اليابان في الطور الصناعي قد دخل حيّز التنفيذ أواخر القرن الثامن عشر.

تراث توكوغاوا:

اتسم هذا التحدي الغربي بالطابع العسكري قبل أي شيء آخر. ولكنّ الأسلحة المتفوِّقة لم تكن حكراً على الأوروبيين فحسب، كما سبق وتبيّن لنا من أمثلة الإمبراطوريات الثانوية المتنوعة تنوع إمبراطوريات الموتيسا والكاميهاميها. وقفت اليابان للمرة الأولى في مواجهة التحدي العسكري الجديد في أواخر القرن السادس عشر، عندما بدأت «إمبراطوريات البارود» تستلم زمام السلطة هنا، وهناك في كل أنحاء العالم. بدورها، اعتمدت اليابان على أسلحة البارود، ولكن ابتكاراتها العسكرية تضمنت استخدام كتيبة المشاة الثقيلة المنضبطة والمزودة بالبنادق دونها، وتشيد القلاع الكفيلة بتأمين الدفاع في مواجهة المدفعية، وقد وازت هذه التغييرات ابتكارات مماثلة في أوروبا. ظهر الأوروبيون في اليابان في ذلك القرن، ولم تشكل الإرساليات التبشيرية المسيحية وغيرها أي تهديد يُذكر.

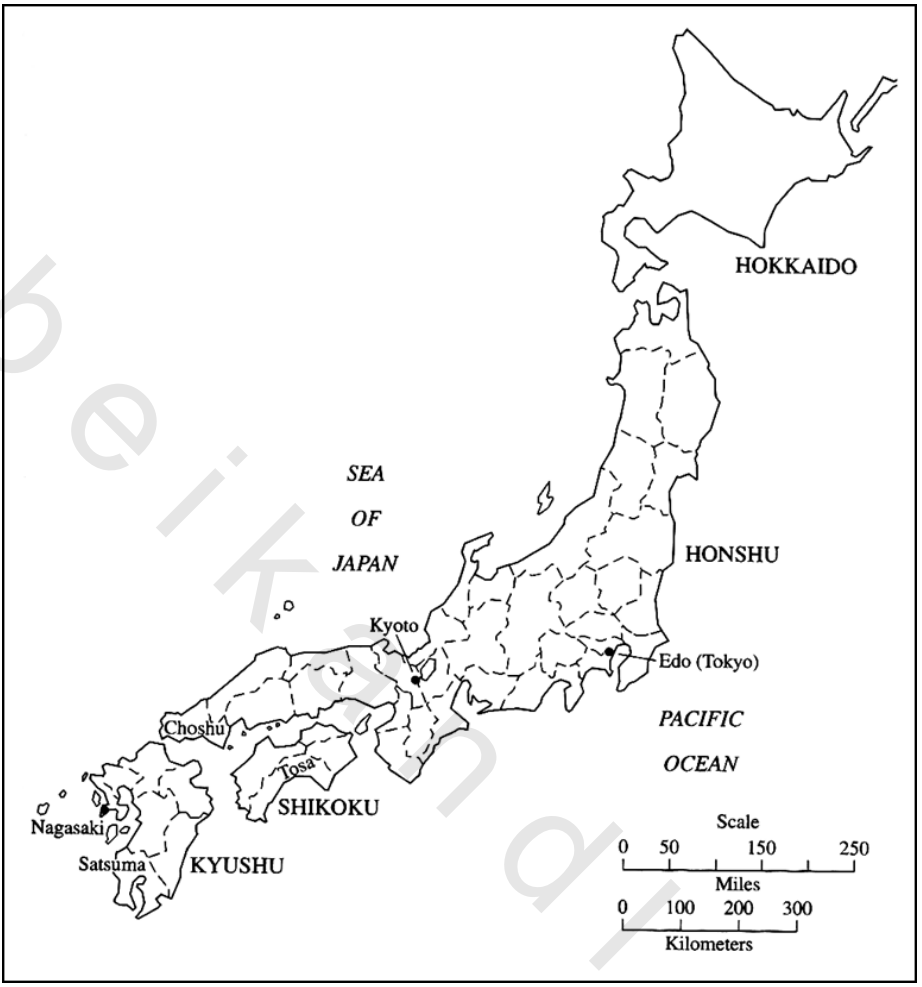

في مطلع القرن السابع عشر، أتاحت التكنولوجيا العسكرية الجديدة المستعارة جزئياً من الخارج فرصة توحيد اليابان على يد قيادة توكوغاوا العسكرية شوغونات Shogunate Tokugawa أدت الوسائل الجديدة المعتمدة في تنظيم القوة العسكرية إلى توحيد الجزر سياسياً، كما حصل بعد قرنين في هاواي ومدغشقر. ولكن توكوغاوا واصل عمله بطرد المبشرين الأجانب، وقصر التجارة الخارجية على بعض الهولنديين والصينيين الذين أُذن لهم بممارسة أعمال تجارية من قواعد على مقربة من ناكازاكي في الجنوب الغربي الأقصى.

نعمت اليابان في حقبة توكوغاوا بقرنين ونصف القرن من السلام النسبي الداخلي والخارجي على حد سواء. ومع أن اليابانيين حدّوا من اتصالهم مع الأجانب، إلا أنهم كانوا على علم بالعالم الخارجي وبشؤونه وقد شعروا بالرضا لفترةٍ من الزمن لقدرتهم على البقاء بعيداً عنهم. ومع ذلك، تلاشى هذا الرضا عند انتصار البريطانيين في حرب الأفيون في مطلع الأربعينيات من القرن التاسع عشر، إذ ثبت خلالها ما يمكن للأسلحة البريطانية أن تحققه في مواجهة الإمبراطورية الصينية. في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر، عانت القيادة اليابانية من سلسلة من الصدمات التالية عندما أجبرتها القوى الأوروبية، والولايات المتحدة على فتح «أبوابها على مصراعيها» أمام التجارة العالمية.

حتى العقود الأخيرة، نزع المؤرخون، ولا سيما غير اليابانيين على اعتبار التحديث الياباني نتيجةً مباشرةً لوصول الأسطول الأميركي إلى خليج طوكيو سنة ١٨٥٣، ويصح القول إنّ تغييرات بارزة ظهرت على الاقتصاد الياباني عقب ذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولكن المؤرخين في فترة زمنية أقرب توصلوا لبذور مهمة للتغيير في عهد توكوغاوا تعود إلى مطلع القرن السابع عشر.

ظلت اليابان تتمتع بوحدة سياسية نظرية تحت حكم إمبراطوري، وقد كانت هذه المؤسسة خاضعةً لتأثير المثال الصيني، إلا أنّ سلطة الإمبراطور الفعلية كانت شبه معدومة. في القرن السابع عشر، انقسمت اليابان إلى مئات من الوحدات السياسية والعسكرية المتنافسة ضمن نظام سياسي شبيه، من بعض النواحي، بالنظام الإقطاعي الأوروبي، ثم خلال ذلك القرن، شهدت اليابان سلسلة من التغييرات السياسية، العسكرية التي عادلت قيام الملكيات الوطنية في الحقبة الزمنية ذاتها في أوروبا.

تعدّ المركزية السياسية سبباً للتغييرات العسكرية ونتيجةً لها، في آن واحد: ذلك أنّ تعاقب القادة العسكريين الأكفاء، وضع البلاد تدريجياً تحت جناح سطوتهم. في سنة ١٦٠٣، حصل أحد هؤلاء القادة العسكريين المدعو توكوغاوا إياسو على لقب

شوغون، أو القائد العسكري الأعلى تحت حكم الإمبراطور، وسرعان ما نجح في تعزيز منصبه حتى بات أقوى من الإمبراطور، ومن ثم أصبح الشخصية الأهم في اليابان وأسس قيادة توكوغاوا العسكرية العليا Shogunate. وبحلول العشرينيات من القرن السابع عشر، رسّخ خلفاء توكوغاوا مركزهم باعتبارهم حكاماً فعليين يتمتعون بنفوذ فعلي أقوى من أي إمبراطور حالي أو سابق.

من الناحية النظرية، كان نظام توكوغاوا عبارةً عن ديكتاتورية عسكرية يحكمها الباكوفو bakufu (معناها الأصلي المخيَّم) ومتمركزة في قصر الشوغون (القائد العسكري الأعلى) في إيدو (طوكيو الحالية). ولكنّ ممارسة النفوذ الفعلي كانت تمرّ عبر مجموعة من المؤسسات الإقطاعية ذات الطابع اللامركزي، علماً بأنّ نفوذ الباكوفو في أرجاء البلاد كافة كان يفوق السلطة المتوافرة للملكيات الوطنية المعاصرة في أوروبا الغربية. كان الشوغون قد سبق وتبنى، في الثمانينيات من القرن السابع عشر، إجراءات تقضي بتنظيم الاضطراب الإقطاعي والسيطرة عليه، على غرار مسح الأراضي الذي صنّف الأراضي كافة حسب إنتاجيتها المحتملة من الأرز بمكيال الكوكو koku (أي ما يعادل خمسة بوشل). وبالتالي، صنّف الممتلكات الإقطاعية وفرضت عليها الضريبة وفقاً لمكيال الكوكو المخصص لها. وأهم اللوردات أو دايميو daimyo أولئك الذين كانوا يمتلكون ما يزيد على العشرة آلاف كوكو. وقد كان الأوساط من هؤلاء الدايميو يخضعون لبعض كبار الدايميو، من مثل توكوغاوا ذاته.

تفاوت عدد الدايميو إلى حد ما، ولكنه كان يتراوح عامةً بين ٢٥٠ و٣٠، وتفاوتت الدايميو المسماة هان han تفاوتاً كبيراً حجماً ووظيفةً. بعض الدايميو كانوا على ارتباط مباشر مع عائلة توكوغاوا، وتركزت ممتلكاتهم في وسط اليابان على مقربة من كيوتو وإيدو، أما الممتلكات الباقية فقد تناثرت في كل أنحاء الجزر، وأُطلق على الأقلّ صلةً بعائلة توكوغاوا تسمية ملكيات الهان الخارجية الموجودة أساساً بعيداً عن

المركز، أي في جنوب غرب اليابان وشمالها، كانوا يشكلون أقلية بما أنّ عددهم لم يزد على المئة، ولكنهم كانوا أكثر عدداً ممن خضعوا مباشرة للباكوفو.

قام على خدمة الدايميو مجموعة من المستخدمين العسكريين المعروفين باسم الساموراي، وقد كانوا ينتمون لطبقة عسكرية متوارثة تتقاضى أجراً منتظماً هو عبارة عن عددٍ معينٍ من مكاييل الأرز بالكوكو محددّةً عرفاً. ألفت هذه الطبقة – بالإضافة إلى الدايميو – طبقةً مماثلة لطبقة النبلاء والأرستقراطيين في أوروبا، وشكلوا حوالي ٧ بالمئة من العدد الإجمالي للسكان، وكانوا يعيشون أساساً على العمالة الإنتاجية للطبقات الأخرى. أما الخط الفاصل بين الطبقات السياسية، العسكرية والدركات الأدنى، فقد كانت قانونية، متوارثة، محترمة بشكل دقيق.

ضمن الطبقات الأدنى، كانت الفوارق متوارثة أيضاً، من الناحية النظرية، ومحددة قانوناً بحيث كانت تميز الفلاحين والحرفيين والتجار تمييزاً تنازلياً. أما الفوارق الفعلية التي كانت تفصل بين الطبقات الدنيا، فقد كانت سلسلةً يصعب الحفاظ عليها، كما كان الثراء الفعلي، والهيبة والنفوذ السياسي داخل كل من هذه الطبقات يتفاوت تفاوتاً شديداً. كان الفلاحون الأثرياء وزعماء القرى يتمتعون بنفوذ يفوق سلطة العديد من فرسان الساموراي ذوي المراتب الدنيا، وتمكّن بعض التجار من تجميع ثروة كبيرة على الرغم من وضعهم الاجتماعي المتدني.

ظلّ الإمبراطور ممثلاً لرأس الدولة الرسمي، لكنّ السلطة انحصرت نظرياً في أيدي الباكوفو وانتشرت، إلى أن عمّت كل الملكيات الهان، ومع ذلك فإن نفوذ العمل للباكوفو كان محصوراً، عمل العديد من الدايميو حكاماً نصف مستقلين، ولا سيما في الهان الخارجية، لقد كانت اليابان في عد توكوغاوا عبارة عن فدرالية الشوغون بنفوذ كاف للحفاظ على السلام ولكنه لم يكن كافياً لتسيير أعمال الحكومة في الهان الخارجية بالتفصيل. كان لكل إقطاعية هان جيشها الدائم الخاص بها من الساموراي، علماً بأنه نادراً ما كان يُطلب من هذه الجيوش أداء الخدمة. وبحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر، أصبح للساموراي مراكز اجتماعية، دخلوا

مستندين إلى وضعهم العسكري، ولكن نشاطهم الفعلي الأهم اتسم بالبيروقراطية. خلفت اللامركزية أيضاً وراءها بعض النفوذ بين أيدي قيادة فلاحي القرى، وبعضه آخر بين أيدي التجار وغيرهم من الطبقات الحضرية.

هذا التغيير الاجتماعي، والاقتصادي الذي جرى خلال القرنين، ونصف القرن من التوكوغاوا ظلّ راسخاً في الأعماق. فقد تضاعف النتاج الزراعي تقريباً بين ١٦٠٠ و١٨٥٠، فيما تزايد عدد السكان بحوالي ٤٥ بالمئة فقط. قلّت الحاجة لليد العاملة في الحقول، وتعاظم تخطيط المدن دون أن يقتصر على إيدو وكيوتو، بل وشمل أيضاً المدن المحيطة بالقلاع، والتي انتشرت على شكل مراكز للهان شبه مستقلة. وصل تخطيط المدن اليابانية في مطلع القرن التاسع عشر إلى مستوى موازٍ لما بلغه في أوروبا في مطلع الحقبة الصناعية. واحتوت إيدو على أكثر من مليون شخص، أي ضعف عدد سكان باريس. ولا يتوافر مقياس دقيق عن الإنتاج غير الزراعي ولكن يبدو أن الصناعات الحرفية الحصُرية والسلع نمت بسرعة فاقت حتى الإنتاج الزراعي، وبفضل وفرة الموارد المخصصة للتعليم، أصبحت اليابان أكثر الدول تعلماً في آسيا، وقد زادت نسبة التعلم فيها عنه في معظم دول أوروبا الغربية. وابتداءً من القرن التاسع عشر، تساوى مستوى الحياة في اليابان إلى حد ما بما هو عليه في بريطانيا، ونعمت الجزيرتان بالوفرة أكثر من الجارات البرية.

حاول المؤرخون تبرير القيادة الاقتصادية لبريطانيا، أو لليابان ما قبل الحقبة الصناعية من خلال البحث عن سلسلة من المسببات التي تبشر بدنو النجاح الصناعي. أفاد إ. ل. جونز بأن الناس يحاولون عادة كسب المزيد من الثراء المادي. ولكن لا ينبغي أن نعزو نجاحه في تحقيق هذا المطلب. في حال حصوله، إلى أسباب إيجابية بل إلى غياب الكوابح absence restraint من الحكومات أو القادة. في حالة اليابان، فقد لعب القرنان ونصف القرن من السلام النسبي دوراً مهماً. والدور نفسه لعبه توازن القوى السياسية القائم بين الهان الفردي والباكوفو. أشار العديد من المؤرخين بأنّ انقسام أوروبا إلى عدد من الملكيات الوطنية المتنافسة بالإضافة

إلى وضع ما تبقى من النفوذ في أيدي النبلاء والبلدات والتجار وغيرهم اضطلع بدور أساسي في انتعاش الغرب. توازن معادل للقوى ظهر في اليابان في أثناء حكم التوكوغاوا أيضاً.

الثورة اليابانية:

يجدر بنا أن نشد – في مستهل الموضوع – على أن الثورة اليابانية التي وقعت في الستينيات، والسبعينيات من القرن التاسع عشر حققت تغييرات سياسية على غرار الثورة الفرنسية، الروسية، المكسيكية في التاريخ الغربي، أما الحدث الأبرز فقد تمحور حول صعود إمبراطور الميجي من جديد في سنة ١٨٦٨ ووضع حداً للباكوفو الذين عينهم توكوغاوا ليعملوا عمل الحكومة المركزية في اليابان. إلا أن إعادة الإمبراطور تتضمن عناصر مثيرة للتناقض. بدأ قادة هذه الثورة بإطلاق شعار «أعيدوا الإمبراطور، أطردوا البرابرة»، قاصدين بهؤلاء التجار، الدبلوماسيين الأوروبيين الذين وصلوا مؤخراً إلى اليابان. في الواقع، لم يحصل الإمبراطور الميجي المسترجع على نفوذ أكثر مما كان سابقوه يتمتعون به. فقد كانت السلطة الفعلية محصورة في فترة إرجاع الإمبراطور بين أيدي مجموعة من الأقلية ينحدر معظم أفرادها – في أغلب الأحيان – وليس حصراً، من الطبقة الأرستقراطية من الهان الخارجي. أثارت مجموعة الأقلية هذه روح الثورة في الطبقات العليا من المجتمع الياباني. معتمدةً أساساً على التقنيات، والمؤسسات من البرابرة الذين طالبوا بطردهم.

في أثناء هذه العملية، دمروا الوضع القانوني والنفوذ المخصصين للدايميو والساموراي، أي الطبقة التي انتموا إليها شخصياً، وبحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، تمكنوا من تحقيق التوازن العسكري مع العديد من القوى الأوروبية.

وبحلول سنة ١٩٠٥، أصبحت اليابان قادرةً على دحر الإمبراطورية الروسية في حرب لم يخوضوها للدفاع عن أنفسهم في مواجهة الإمبريالية الغربية بل بسبب تصادم بين الطموحات الإمبريالية اليابانية والروسية على أراضي شرق آسيا.

التكنولوجيا العسكرية:

دخلت التكنولوجيا العسكرية عقر دار حركة التحديث اليابانية. عرفت اليابان تقليداً عسكرياً قديماً. وقد حددت الوظيفة العسكرية طبقة الساموريا المميزة. بقيت عيون اليابانيين ساهرة تراقب الشؤون العسكرية الغريبة، حتى في الفترة التي كان فيها الباكوفو يُحكّم سيطرته على البلاد، وكانت أبواب اليابان مغلقةً إلا قليلاً في وجه التجارة الأجنبية. رين شيهاي كان قد كتب في التسعينيات من القرن الثامن عشر، كتابه الشهير الذي يُترجم عنوانه عادةً بدراسة المشكلات العسكرية لدولة بحرية. توافرت المعلومات عن التكنولوجيا الأوروبية من خلال المحطة الهولندية في ناكازاكي. واستخدم اليابانيون المسكيت والمدافع لحوالي القرنين؛ ولذلك لم يؤخذوا على حين غرة بالطريقة نفسها التي واجهها غيرهم من الذين تصادموا مع أوروبا في العقود التي امتدت من ١٨٦٠ حتى ١٩١٠. ومع ذلك، ظلوا يظهرون لا مبالاة حيال الخطر الغربي إلى أن انهزمت الصين في حرب الأفيون بين سنة ١٨٣٩ و١٨٤٢ كما سبق قوله.

خاضت تلك الحرب، عن الجانب البريطاني. القوات البحرية للبحرية الملكية والشركة البريطانية للهند الشرقية التي كانت تتفوق على البحرية الملكية بأسلحتها المتطورة.

وقد أدخلت للمرة الأولى البواخر الحديدية draft-long التي كانت تحمّل عليها المدافع الثقيلة والصواريخ بغية استخدامها في مواجهة الحصون الساحلية والمراكب. صُممت هذه البواخر أساساً كي تُستخدم في الأنهار الهندية؛ ومع ذلك فقد كانت قادرةً على الإبحار في رحلات طويلة حول رأس الرجال الصالح.

تركزت المراكز الاقتصادية للقوات الصينية في الأراضي الداخلية لا على الساحل. ومن ثم فقد كانت القوات البحرية البريطانية معدومة الفاعلية في غياب قوة استكشافية قادرة على التحرك نحو الداخل. ومع ذلك تمكنت البواخر، في حملة سنة ١٨٤٣، من إسكات المدافع المنصوبة على السواحل وأبحرت صعوداً في

مجرى نهر اليانغسي حيث هددت بقطع خط الاتصال المهم بين الشمال والجنوب للقناة الكبرى. وجود القلاع الساحلية لم يكن حيوياً لمصالح الصين خلافاً للقناة الكبرى؛ ولذلك اضطر الصين للاستسلام لمطلب بريطانيا التجارية، تخلت عن جزيرة هونغ كونغ.

لم يغب هذا الدرس عن وعي اليابانيين، في بعض الدوائر العليا على الأقل، بوشر تطبيق التحديث العسكري الدفاعي بشكل شبه فوري، مع أنه لم يكن يعني المستوى المركزي من الباكوفو. كان لكل دايميو قواته العسكرية الخاصة، وصدرت الاستجابة الأهم من الهان الخارجي الكبير في الجنوب الغربي، ولكن الآخرين تدخلوا أيضاً. في سنة ١٨٤٠، أقام دايميو ميتو مسبكةً جديدةً للحديد ومصنعاً للأسلحة على الطراز الهولندي. وبدأ هان آخر يصنّع مدافعه الخاصة في فترة مبكرة أي في سنة ١٨٤٢، وأصبح له فرن صاهر جرى العمل فيه بحلول سنة ١٨٥٢، أي قبل سنة من وصول الكومودور بيري.

تُعَدُ زيارة الأسطول الأميركي حدثاً مهماً بالنسبة لليابانيين. بما أنها مثلت الظهور الأول لقوة بحرية غربية في المياه اليابانية. وعلى الرغم من أنّ الأسطول كان يتألف من ثمانية مراكب، وأن الولايات المتحدة كانت أقل قوة من بريطانيا في المياه الآسيوية، فقد افتتحت هذه الزيارة صفحةً جديدة إذ وقّعت اليابان مع الأميركيين، في سنة ١٨٥٤، سلسلةً جديدةً من المعاهدات فتحت بموجبها اليابانُ أبوابها أمام التجارة الخارجية. والأهمّ من ذلك المعاهدة الأمريكية – اليابانية التي شارك في مفاوضتها تاونسند هاريس في سنة ١٨٥٨، وسرعان ما أُجبرت اليابان على توسيع رقعة تنازلاتها كي تشمل الأجانب الأوروبيين عامة. ولوحظ بحلول منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر، وضع مقلق، مثير للاستياء، فقد أُقيمت التجمعات الأوروبية في المرافئ اليابانية بحماية حراسها الخاصين، وتمتعت بحقوق موثقة في معاهدة خارج القانون الياباني.

تميّزت الحقبة الزمنية الممتدة من سنة ١٨٥٣ حتى إعادة الإمبراطور سنة ١٨٦٨

بإصلاحات داخلية على قدر كبير من الأهمية في العلاقات العسكرية، السياسية داخل اليابان. حاولت مجموعات الدايميو المختلفة أن تعزز قوتها العسكرية، وتناور للحصول على المزيد من النفوذ في وضع سياسي سلس. في المرحلة الأولى، توافرت الأسلحة الجديدة بشكل رئيس بين أيدي ممتلكات الهان الخارجية، مع أن الباكوفو، وحلفاءهم كانوا يسعون لإدخال تحديثات عسكرية في قواتهم الخاصة.

قوة الإمبراطور العسكرية كانت معدومة، ولذلك أصبح رئيساً صورياً للمعارضة المواجهة للقيادة العسكرية العليا. في كل الأحوال، تضاربت الصراعات السياسية التي نشبت في تلك الفترة. أجبر الباكوفو في إيدو على القبول بتنازلات لصالح الغربيين فيما كانوا يحاولون بناء دفاعهم الخاص ضد الغرب. اتهمت بعض مجموعات المعارضة الباكوفو بتقديم تنازلات أكثر مما يجب، مستخدمين الإمبراطور كرمز وطني مهم للأهالي nativist في حين كانوا يستخدمون، في الفترة ذاتها، التكنولوجيا الغربية لتحديث قواتهم الخاصة. لقد كانت حقبة زمنية تميّزت بقيام عنف لا مقصد من ورائه بقيادة كتائب وضعت جانباً، في آخر المطاف. بحلول سنة ١٨٦٥ تقريباً، تشارك كل من الباكوفو، والدايميو البارزين الذين قدّموا الدعم للبلد الامبراطوري في كيوتو بهدف التحديث الدفاعي، فأخذوا يستخدمون رجالاً من غير الساموراي للعمل كجنود عاديين. ووفروا لهم التدريب التكتيكي الذي كان يقدمه الأجانب، وخاصة الفرنسيين منهم. عند حدوث التصادم في سنة ١٨٦٨، لم يكونوا مؤيدين ولا معارضين للتحديث أو للإمبراطور أو للقيادة العسكرية العليا. تشابه الجانبان إلى حد أن المعركة الوجيزة لكن المهمة التي ختمت حقبة توكوغاوا كانت عبارة عن صراع بين سلطتين لأقلتين متنافستين تسعيان جاهدتين للهيمنة على حكومة مركزية جديدة كان من المحتمل أن تضع قيد التنفيذ سياسات متماثلة مهما كان الجانب الفائز.

استخدام كلمة restoration خاطئ. فقد أصبحت الحكومة التي بدأت تغير اليابان في سنة ١٨٦٨ مختلفة عما كانت اليابان تعرفه في الماضي. ومع أنها أقامت

تغييرات ثورية مدّعية بأنها ترسّخ التقاليد اليابانية إلا أنها ألغت نفوذ الدايميو والباكوفو أيضاً. حصل أبرز الدايميو على منح حسَّنت فعلياً وضعهم الاقتصادي. ولكن صغار الدايميو وطبقة الساموراي بأسرها فقدت التمويل الحكومي والتمييز القانوني الذي كان يفرّقها عن باقي السكان. قسِّمت اليابان إلى ٥٠ قطعة يحكم كل منها والٍ تعيّنه الحكومة المركزية، وتقيله، وحلّ هذا الوضع محل البنية اللامركزية التي أنشأها توكوغاوا وضمت الهان شبه المستقل الخاضعة كل منها إلى حكامه المحصّنين وجيشه الدائم.

سعى المؤرخون إلى تحليل هذه التغييرات وفقاً للطبقات الاجتماعية، حيث كانت طبقة الساموراي العليا والدنيا تعمل لمصلحة طبقاتهم. لمزيد من السهولة والوضوح نقول إن بعض المجموعات التي تنتمي إلى الطبقة الحاكمة السابقة، والمرتبطة في معظمها بالقوة العسكرية الإصلاحية في ممتلكات الهان الجنوبية الغربية، قد وضعت يدها على السلطة الفعلية للحكومة اليابانية. ثم إنها أنشأت شكلاً جديداً من الحكومة المركزية باسم الإمبراطور، وفيما كانت في طور تنفيذها لهذه العملية، أقامت قوة عسكرية جديدة على شكل جيش وطني حلّ - بعد مرور بعض الوقت - محل جيوش الهان والباكوفو على حد سواء. بما أن هذه الأقلية الجديدة قد أصبحت قائدة الجيش الوطني الجديد. فقد أصبحت تتبوأ مركزاً يسمح لها باستلاب امتيازات الأرستقراطية العسكرية القديمة التي ينحدرون منها أصلاً. في الواقع، غيّرت هذه الأقلية موضع السلطة في المجتمع الياباني من خلال تحديث الجيش والبحرية وإقامة إدارة حكومية على الطراز الغربي لدعمها. كما سبق ورأينا في أمثلة أخرى متنوعة من قبيل مثال روسيا في عهد بطرس، وبوغندا في عهد أبولو كاغوا، فمن الممكن أن يؤدي التعديل الذي أدخل إلى التكنولوجيا العسكرية، والطريقة المعتمدة في تنظيم القوة العسكرية إلى تغيير موضع السلطة في مجتمع من المجتمعات. عززت هذه التغييرات - في اليابان - تعزيزاً أساسياً سلطات الحكومة من خلال تحديث التنظيم العسكري والإداري الحكومية، دون إدخال أي

تعديل على العملية السياسية، أدارت حكومة الأقلية الميجي في السابق، متبنية وسائل يابانية بحتة لحل حالات النزاع بين المجموعات، مع الوقت، قدِّر لليابان أن تقترض الكثير الكثير من الغرب حتى فيما يخص العملية السياسية ولكن هذه التغييرات لم تر النور إلا عند حصولها على تشكيلة إمبريالية في سنة ١٨٨٩، وأرجئ العديد من أهم التغييرات إلى ما بعد ١٩٤٥.

القوة العسكرية والتصنيع والتغيير الاجتماعي:

تشكلت طبقة النبلاء اليابانية، على غرار نظيرتها الأوروبية، بدافع أداء واجب عسكري، ولكن كان لها تقاليدها الخاصة بها، شددت التقاليد العسكرية الغربية تشديداً خاصاً على استخدام الحصان. فكان الفرسان يحاربون من على صهوة أحصنتهم فيما كان العامة يخوضون القتال مشياً على أقدامهم. كان لليابانيين سلاح الفرسان أيضاً ولكن السيف، لا الحصان كان الرمز الذي اختاره الساموراي. بالفعل، كان يحق للساموراي، وفقاً للقانون والعرف، أن يحمل سيفين وهو امتياز حرمت منه الطبقات الأخرى، وبالتالي برر هذا الحق الاهتمام الخاص الذي أولاه الساموراي للأسلحة بوصفها خاصية طبقية. احتقر النبلاء اليابانيون والأوروبيون، على حد سواء، الطبقات الأخرى، ولكنّ الأوروبيين ازدروا المظاهر التكنولوجية للحرب، واعتبروا أنفسهم مستخدمي الأسلحة، لا صانعيها.

سبّب هذا التصرف السلوكي الذي أظهره الأوروبيون تضمينات بعيدة المدى في التاريخ العسكري الأوروبي، فنتيجة له، سلّمت الجيوش الأوروبية في البداية سلاح المدفعية إلى المدنيين، وقد كانت المدفعية فرعاً متدني الشأن في معظم الجيوش الأوروبية خلال القرن التاسع عشر. سلوك مماثل حيال أدوات القتال حمل البحرية الملكية على معارضة مجرد فكرة المراكب البخارية الحديدية iron steamer. اضطرت الشركة البريطانية في شرق الهند إلى تطوير المراكب البخارية الحديدية iron steamer بغية تجنب معارضة القوة البحرية بشكل خفي. تصرفات مشابهة

حيال الأسلحة واستخداماتها شكّلت قادة تعروا معجبين ببطولة سلاح الفرسان إلى حد دفعهم إلى توسيع آفاقهم بحيث شملت ذبح رجال أرسلوا للوقوف في وجه المدفعية والرشاشات على الجبهة الغربية خلال الحرب العالمية الأولى في اليابان، وجدت القوات العسكرية أنه من المناسب أن يسيطر الساموراي على إنتاج الأسلحة عوضاً عن إبلاء هذه المهمة المهمة إلى التجار المنتجين إلى طبقة اجتماعية دنيا، أو الحرفيين الحضريين، أو الفلاحين، وجّه هذا السلوك حركة التحديث العسكري الياباني نحو اتجاه معيّن، بالمقارنة مع أماكن أخرى في العالم غير الغربي. تركّزت معظم الجهود المبذولة في أنحاء العالم كافة، في مجال التسليح الدفاعي، على تأمين الأسلحة الغربية، حذا اليابانيون حذوهم ولكن جهودهم تخطّت مجرد اكتساب الأدوات الغربية واستخدامها إلى تصنيعها بأنفسهم وإدخال تحسينات على التصميم عند الإمكان.

سلوك مماثل وجّه التصنيع الياباني نحو مسار خاص ووجهة معيّنة. فقد وضعت، قبل كل شيء، تراتبية الأولويات، وفيما دخلت أوروبا مجال الصناعة من باب الصناعة الخفيفة مثل النسيج والماكينات التي تحل محل اليد العاملة ويمكن إدخال تغييرات صغيرة عليها من خلال استثمار بسيط يقدمه تاجر أو حرفي، فقد دخلت اليابان عوضاً عن ذلك مجال التصنيع عن طريق أثقل الصناعات وتكنولوجيا المناجم، مثل علم المعادن والمسابك في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، ولم يبن معمل الحرير الياباني الأول حتى سنة ١٨٧٠.

أنشأت الحكومة اليابانية الصناعات اليابانية الجديدة لأغراض خاصة بالدولة، أي ما مفاده لأغراض عسكرية، يعود بدء هذه الممارسة حتى إلى ما قبل إعادة الإمبراطور إلى مركزه، عندما قام بعض الدايميو ببناء معامل للذخيرة خاصة بهم. اختير القسم الأكبر من البيروقراطيين المسؤولين عن هذه الصناعات الجديدة، ولا سيما في المراحل الأولى، من طبقة الساموريا، وقد كان الساموراي قد اضطلعوا في

السابق بإدارة الحكومة اليابانية عن الباكوفو والدايميو على حد سواء. ولكن التجار اليابانيين لم يهملوا تماماً إذ إن مستوى من التعاون بين زعماء الحكومة الأقلية الميجي، ورجال ذوي أهداف تجارية – صناعية تواجد من حقبة زمنية تعود إلى فترة ما قبل إعادة الامبراطور. وتعاظم هذا المستوى من التعاون عقب التغييرات الثورية الاجتماعية، والقانونية في السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولكن طبقة التجار لعبت في الفترة الأولى دوراً أقل أهمية في التصنيع عن دور البرجوازية الأوروبية.

في العقود الأولى من الإصلاح، شاركت الحكومة في مشاريع غير عسكرية أيضاً. ولكن في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، تخلت الحكومة عن استثمارها في الصناعات التي لا تمت بصلة واضحة بالمجال العسكري، وفي مشروع واسع النطاق يمكن أن يطلق عليه حالياً تسمية الخصخصة، بدأت تبيع المناجم، ومعامل النسيج، وبعض السكك الحديدية، والمراكب البخارية، كما حصل في بعض الأحيان في خصخصة متأخرة، كان للمشترين غالباً روابط تصلهم بحكومة الأقلية الحاكمة فتمكنوا من إجراء عمليات الشراء بأسعار مناسبة. انتمى بعضهم إلى عائلات دعمت إعادة الإمبراطور، فيما كان بعضهم الآخر أعضاء موفوري الجيب من طبقة التجار. وبهذا الأسلوب ارتقى بعض الساموراي وبعض التجار إلى طبقة جديدة من الرأسماليين الصناعيين، جوهر هذه المجموعة تألف من عدد من العائلات المعروفة بشكل إجمالي باسم الزايباتسو – وكانت تجمع بين الميتسوي، والميتسوبيشي، والسوميتومو، والياشودا – الذين سيطروا على حصة وافرة من الصناعة اليابانية منذ ذلك الحين.

بحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، تطوّر نمط ثابت نسبياً من العلاقات التي ربطت بين الصناعة والحكومة، وقدّر لها أن تدوم حتى مدة بعيدة من القرن الجديد. تضمنت ثلاث مجموعات صناعية مختلفة تتميّز بعلاقتها بالحكومة. أبقيت بعض الصناعات التي اعتبرت ذات أهمية خاصة للمؤسسة العسكرية تحت سيطرة الحكومة المباشرة وإدارتها. سلِّمت مجموعة أخرى ذات أهمية استراتيجية ولكن

لا صلة مباشرة لها بصناعة الأسلحة إلى الزايباتسو وأفراد غير عامين آخرين، علماً بأنّ هذا القطاع من الاقتصاد ظلّ تحت سيطرة حكومية محكمة. أخيراً، تأسست بعض الصناعات على يد مقاولين اعتقدوا بوجود فرصة سانحة لهم للتسلل عبر فرجات الاقتصاد المجدَّد. كان هؤلاء المقالون، في أغلب الأحيان، من الحرفيين الذين لا يستخدمون القدر الكبير من المكننة بل عمليات حرفية ومهارات تقليدية.

بدت اليابان، للناظر إليها من الخارج، دولة رأسمالية حديثة تتسم بأشكال غربية للتنظيم الاقتصادي. ولكن أوجه الشبه بلغت مستواها الأقصى في عالم التكنولوجيا فيما كانت مؤسسات الإدارة تتميز بطابع غربي على الهامش فقط. كانت أسماؤهم تظهرهم على شكل مصارف، مؤسسات، بورصة، وما شابهها إلا أن الانطباع السطحي الذي تظهره اليابان بوصفها نسخة كربونية عن المجتمع الرأسمالي البرجوازي الغربي كان مثيراً لخيبة الآمال. فالواقع يبيِّن مجتمعاً حديثاً حيث إنه كان يتحرك نحو تحقيق إنتاجية عالية، واستهلاكاً مرتفعاً، ولكنه ظلَّ يحتفظ بمعالم يابانية في العديد من أساليب التشغيل.

إضفاء الطابع الغربي على الحياة السياسية:

بدأت حكومة الأقلية الميجي بإصلاح عسكري، وسرعان ما عقبته إصلاحات في الإدارة الحكومية، بدا واضحاً بأن النظام الإداري الذي كان يتبعه الباكوفو والدايميو لا يتلاءم والحكومة المركزية من النوع الضروري لتجميع الأموال وفرض سيطرة مركزية فعلية على البلاد. قد يكون تطبيع الحياة السياسية بالطابع الغربي قد اكتفى بإصلاح الإدارة العسكرية والإدارة الحكومية، ولكن بحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، اشتملت الإصلاحات على دستور مدوّن، ووزارة، وحكومة تمثيلية، وأحزاب سياسية، وأشياء أخرى عديدة – وقد حدث كل ذلك بعد مرور ربع قرن على إعادة الإمبراطور وكلامه عن العودة إلى نظام سياسي ياباني عتيق.

كانت طبقة الساموراي الشباب وغيرهم من الذين وضعوا يدهم على السلطة في

السنوات التي سبقت ١٨٦٨ مباشرة بدأت تتقدم في السن ولكن أعضاءها كانوا لا يزالوا يحتفظون بزمام الأمور في البلاد. صحيح أنّ حكومة الأقلية الميجي كانت تستطيع أن تستخدم أعضاء جدد وتواصل حكم البلاد في ظل شعار التقليدية وباسم الإمبراطور، ولكنها قررت في سنة ١٨٨٩، أن تمنح دستوراً على الطراز الغربي – أو أن تجعل الإمبراطور يمنح هذا الدستور، حتى وإن لم يوفر هذا الدستور الرسمي سوى القدر القليل من التغييرات الفعلية في تحديد هوية من يمارسون السلطة داخل الدولة اليابانية.

طرحت عدة أسئلة من قبيل ما الداعي لتغيير الشكل الخارجي للحكومة بغية استبدال حكومة من الأقلية الحاكمة من خلال إمبراطور صوري بحكومة من الأقلية الحاكمة من خلال وزارة وبرلمان وهميين؟ ما الداعي لإضفاء الطابع الغربي على الشكل الخارجي للحكومة، إلا إذا كانت ترغب بإضفاء الطابع الغربي على الواقع أيضاً؟

لقد كانت مشاركة المؤسسة العسكرية في عملية التغيير هذه ميزة جوهرية، ولكنها لم تكن حكراً على اليابان فقط. فقد لعبت المؤسسة العسكرية دوراً مهماً في مواقع أخرى بعيدة ومتنوعة بعد بوغندا والإمبراطورية العثمانية وتنوعهما، لقد كانت الحاجة للتحديث الدفاعي تتأتى، في أغلب الأحيان، من المؤسسة العسكرية ولكن أيضاً من أقلية ضمن القيادة العسكرية – أي من الذين نبهتهم اهتماماتهم المهنية ولفتت انتباههم إلى المخاطر التي تسببها القوة العسكرية الغربية وإلى الفرص الناشئة لمن يقلدهم. تحوّلت هذه الأقلية إلى قسم من أقسام الجيش فرض نفسه لتسلّم شؤون الأسلحة الجديدة والتكتيكات الجديدة. ولكن اندفاعهم المؤيد لتحديث الجيش توسع نطاقه ليشمل مجالات أخرى أيضاً. تطلبت الأسلحة الجديدة وسائل جديدة لاكتسابهم، واستلزمت ومن ثم إعادة تنظيم نظام الضرائب لتسديد ثمنها. هذه العملية ذاتها أدخلت مجموعات جديدة إلى الأوساط الحاكمة مثل الصناعيين والبيروقراطيين والوسط الداخلي للرأسماليين. أما الساموراي غير

المقرّبين من مراكز السلطة الجديدة فقد فقدوا معاشاتهم وامتيازاتهم التي كانوا يتقاضونها في السبعينيات من القرن التاسع عشر. أصبحت تقاليدهم القديمة بالية وحلّ محلهم الجيش الوطني الجديد الذي اختير عداده بالقرعة من بين الفلاحين والقرويين المدربين على الأسلحة والتقنيات الجديدة. أما أفراد الساموراي الذين فشلوا في إيجاد مراكز قيادية لهم في النظام الجديد، فقد ظلوا عاطلين عن العمل.

بدا الوضع واضحاً جلياً في منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولكن قسماً من الساموراي حاول عكس التيار، بعد نشوب عدد من الثورات المسلحة في مطلع السبعينيات، قاد لورد ساتسوما، – وهو أحد زعماء إعادة الإمبراطورية الرئيسية – في سنة ١٨٧٧، ثورة مفتوحة مستندة إلى جيش ساتسوما الذي كان لا يزال قائماً. هذه الثورة كانت عبارة عن حركة تمرد رئيسة دامت ثمانية أشهر، وقد شاركت فيها، عن الجانبين، أكثر من ١٠٠ ألف كتيبة. ولكنها باءت بالفشل من جهة لأن الفلاحين العسكريين تمكنوا من دحر من يفوقونهم اجتماعياً، ومن جهة لأن حق مطالبة دايميو ساتسوما اقتصر على ولاء الساموراي داخل ملكية الهان الخاصة بها. شعر الساموراي في مواقع أخرى بشعور ذاته ولكنهم كانوا يفتقرون إلى تركيز وطني كفيل بتأمين تنظيم فعال.

توفر لدى الطبقة الحاكمة القديمة التي أقصيت عن السلطة بديل آخر تمثّل في استخدام الأسلحة الإيديولوجية المقترضة من السياسات الأوروبية، انبثقت حركة الحقوق الشعبية في الفترة الممتدة بين ١٨٧٤ و١٨٧٨، بقيادة رجال لعبوا أساساً دوراً فاعلاً في إعادة الامبراطور ولكنهم أهملوا في وقت لاحق. استعانوا بأفكار الفلاسفة الأوروبيين السياسيين الذين ذاع صيتهم في عصر التنوير الفلسفي – شخصيات مثل روسو أو جون ستيوارت ميل. صحيح أنّ هذه الأفكار أحيطت بهالة من الجاذبية على شكل طابع غربي هامشي إلا أنّ شعبيتها كانت محصورة.

بعض هذه المعارضة كانت مقتنعة بكل صدق بمقولات كتّاب مثل ميل القائل، بأنّ

الديمقراطية هي فعلاً الهدف الذي تصبو إليه اليابان، ولكن معظمهم كان ليبراليي المنحى بالمعنى المحدود الذي كان سائداً في أوروبا في القرن التاسع عشر. مكتفية بشعار رجل واحد تصويت واحد. كان الإعلان عن الخطط المؤدية إلى دستور سنة ١٨٨٩ شكل من أشكال التنازل المقدّم إلى هذه المعارضة الليبرالية المنبثقة من الأوساط العالية من المجتمع. في هذه الأثناء، قضت حكومة الأقلية على المعارضة المنبثقة من المستويات الدنيا، وبالكاد بذل الأرستقراطيون الساخطون جهداً مستديماً بهدف تنظيم الفلاحين أو الجماهير الحضرية.

الضغوطات الخارجية:

ظهرت قوة دافعة ثانية موجّهة نحو تطبيع الحياة السياسية بالطابع الغربي من الموقف الدولي الذي اتخذته اليابان. على غرار مواقع أخرى، كان الهدف الأساسي وراء التحديث الدفاعي عبارة عن تأمين الحماية في العالم العدائي والعنيف المحيط ببناء الإمبراطوريات الأوروبية. كان من الممكن تحقيق جزء من هذا الهدف من خلال تحسين صورة اليابان في الخارج. مال الأوروبيون والأميركيون إلى اعتبار اليابان، على غرار غيرها من المملكات غير الغربية، جذابة وبربرية في أحسن الأحوال، ودام هذا الوضع حتى نهاية القرن وما بعده، حتى عندما تجاوز مستوى التصنيع الياباني مستوياته في العديد من الدول الأوروبية – وقد حدا هذا السلوك العديد من الأميركيين إلى رفض فكرة واقع التهديد الذي يمكن أن تشكّله اليابان في سنة ١٩٤١.

رمز مبكر للغرور الغربي اتخذ شكل «معاهدات غير متكافئة»: فرضت على اليابان في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر. ومن ضمن أمور أخرى، وُضعت قيود على جمارك الاستيراد التي يمكن لليابان، أن تفرضها على السلع الأوروبية كما أنها أجبرتها على قبول تمثيل قنصلي للغرب مصحوب بتشريع قانوني خاص يطبَّق على الأجانب في اليابان إلا أن هذه الشروط جرحت كرامة اليابانيين الوطنية. تعاظم الحس القومي الياباني، في أواخر القرن التاسع عشر، للأسباب

نفسها التي جعلت الحس القومي يتنامى في الغرب في ظل حقبة شهدت نمواً اقتصادياً وتخطيطاً سريعين بما أن الناس باتوا يتحررون من الروابط التقليدية والمحلية واستبدلوها بشعور جديد بالولاء يكنونه للامبراطور أو للأمة.

الأسلوب الأول الكفيل بإرضاء الغرب في أن اليابان كانت فعلاً قوة متحضرة كان يقوم على بناء قوة عسكرية قادرة على مقاومة الاعتداء الغربي، ولكنه يحسن أيضاً وضع اليابان دولياً في حال تبنت دستوراً قد يبدو متحضراً في نظر الأوروبيين. هذا المسار كان ممكناً دون اللجوء لعنف شديد ضد واقع القوى وتوزيعها في المجتمع الياباني. لم تكن اليابان وأوروبا بعيدتين بعداً شاسعاً كما كان يبدو الحال عليه في نظر الغرب. كانت اليابان خاضعة لحكم أقلية تتسلط على البلاد باسم الامبراطور. أما أوروبا فقد كانت تحتوي على عدة تشكيلات مؤاتية مؤلفة من أقليات. التشكلية البروسية كانت تحكم مناسبة بشكل خاص فقد كانت تحتفظ بأقلية تحكم البلاد وتبدو، في الوقت ذاته، للطبقة الوسطى. على شكل حكومة تمثيلية. هذا النموذج هو الذي اختارته اليابان لتطبيقه في سلسلة من التغييرات التي أدخلتها في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وأدت إلى التشكيلة الإمبريالية الأخيرة لسنة ١٨٨٩، كما أنها أقامت جمعية تمثيلية من مجلسين هما المجلس العلوي الذي كان يتضمن أساساً أعضاء من طبقة الدايميو، والمجلس الأدنى الذي كان ينتخبه عدد محدود من الناخبين لا يزيد عددهم عن ٢ بالمئة من سكان البلاد الذكور. أما النفوذ المخصّص للامبراطور – في الواقع لحكومة الأقلية التي انبثقت مع إعادة الإمبراطور – فقد ظل قائماً بحيث أن اتخاذ القرار الفعلي كان مقتصراً عليهم وعلى خلفائهم غير الرسميين لعقود لاحقة.

الدستور والجيش:

وفقاً للقانون، كان الامبراطور هو من يضع الدستور وهو من يعدّله، أما في الواقع، فلم يكن أي تغيير يُدخل على الوثيقة الرسمية بتاتاً، إلا أن الممارسة

الدستورية كانت تتطوّر بأساليب أدت إلى سيطرة الطبقة العسكرية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، منحت إحدى الممارسات الدستورية إلى القيادة العسكرية العليا الحق بصرف أي وزارة يابانية تخفق في كسب رضاها. ابتداء من سنة ١٨٩٨، فرضت قاعدة من قواعد مجلس الشورى - وهي هيئة غير تمثيلية - أن تقتصر مراكز وزير الحرب ووزير البحرية على ضباط عسكريين من رتبة عالية معيّنة. هذه القاعدة حدّدت على الفور اختيار أي رئيس وزراء مكلّف بتشكيل حكومة، بل وأكثر من ذلك بعد، اتَّبع الجنرالات والأمراء من الرتبة المذكورة انضباطاً عسكرياً، ولم يكن في مستطاعهم تبوء مناصب وزارية إلا بعد الحصول على إذن رؤسائهم العسكريين كان في مقدورها أن تمنع تشكيل الحكومة من خلال رفضها بإمدادها بضباط من الرتبة المناسبة.

كان هذا مثالاً واحداً عن الأساليب العديدة التي جمعت فيها عملية اتخاذ القرار السياسي في اليابان بعض الأشكال الغربية والألقاب الرسمية ذات الرنّة الغربية مرفقة بممارسات مشتقة أساساً من المبادئ اليابانية. تدريجياً، تلاشت الأشكال الدستورية والممارسات التي كانت متبعة في مطلع فترة إعادة الامبراطور الميجي على مدار نصف قرن وأكثر، ولكن التقاليد اليابانية ظلت سارية بما أنها دمجت القيم والمعتقدات اليابانية المتعلقة بالسلوك السياسي المناسب. أما النماذج الغربية فقد أعيد تأويلها، في حال استخدامها، بحيث تتجانس مع طبيعة الثقافة اليابانية. لم ينتج عن ذلك إضفاء الطابع الغربي على الحياة السياسية اليابانية، ولا تتابع ثابت للمبادئ اليابانية السابقة، بل سلسلة من الاستجابات الجديدة للشروط المتغيرة.

تحديث حكومات الأقليات في عصر الإمبريالية:

تبدو اليابان في وضع متضارب مع الافتقار المقارن للنجاح الذي أحرزته دول أخرى سلكت الطريق من أوله باتجاه التحديث الدفاعي. ولكن على الرغم من مجموعة متنوعة من النتائج، ثمة قواسم مشتركة تجمع بين تجربة اليابان من جهة،

وبوغندا وإيميرينا وهاواي وسيام من جهة أخرى، كان للقيادة في كل هذه الدول circle vision محصورة بالضرورة في فترة زمنية كان فيها تبادل الاتصال العالمي محدوداً، ما من أحد كان يمكنه أن يعرف أو أن يشتبه بما هو جلي مع بعض التراجع، بأنّ الغرب كان حينئذ يقود العالم ويدخله إلى حقبة جديدة من التاريخ البشري، في حال كانوا يشكون بأمر كهذا، فما من دليل يُثبت بأن الكثير كانوا يودّون الحصول عليه لأنفسهم. ولكن في أكثر الأحيان، بدؤوا ينسخون المصادر العسكرية للقوة الغربية بهدف حماية أنفسهم، بعد ذلك أرادوا أن يحصلوا على جزء من نمط حياة الغرب الذي أغراهم بجاذبيته على ضوء تراثهم الثقافي الخاص. أرادت القيادة الميجي الأصلية أن تطرد البرابرة، من دون أن تحلم بتحويل اليابان إلى المجتمع كما قدّر له أن يصبح عليه عند نهاية القرن.

مع ذلك، من شأن المقارنة بين بوغندا واليابان أن تشير إلى القواسم المشتركة في استجابتهم لما تراءى لهم من تهديد يشكّله الغرب. تنبّهت القيادة في المجتمعين أولاً لتأثير الغرب في جوارهم - المتمثّل بالإمبراطوريات الثانوية الزنجيبارية والمصرية في حالة الغاندا. وبالهجوم على الصين في حرب الأفيون في حالة اليابان. وضعت كلا الدولتين نصب أعينها، كهدف أول، تحقيق التحديث الدفاعي بقيادة جزء من الأرستقراطية المحلية التي تربطها صلات بالمؤسسة العسكرية والعملاء - الزعماء وحكومات الأقليات الميجي، نتج في الحالتين، تغييراً ثورياً لموقع السلطة داخل المجتمع المحلي مجسَّداً في اتفاقية أوغندا وفي التغييرات التي عقبت إعادة الإمبراطور في اليابان، في الحالتين، أدى التحديث العسكري إلى تفوّق عسكري محلي، مما فسح المجال أمام الإمبريالية المحلية في مواجهة جيران أقل تسلحاً، كما حدث في حقبة بناء إمبراطوريات الغاندا الثانوية في فترة مبكرة من الثمانينيات من القرن التاسع عشر وبناء الإمبراطوريات اليابانية فيما وراء البحار ابتداء من التسعينيات من القرن التاسع عشر.

قد يغرينا أن نراكم الأمثلة المتوازية، ومن الممكن إيجاد أمثلة أخرى بين بوغندا واليابان والمملكات الثلاث غير الغربية التي سبق ودرسناها في الفصل السابق. ولكن ما يثير الانتباه هو كثرة القواسم المشتركة بين استجابة الغاندا المنهزمين واستجابة اليابانيين الذين أوشكوا على التفوق بقوتهم العسكرية على الولايات المتحدة.

obeikandl.com